مجلة
بينات

فصلية
تصدر عن
رابطة علماء المسلمين

رابطة علماء المسلمين

العدد (٢) ::: ذو الحجة ١٤٤٠هـ ::: أغسطس ٢٠١٩م

مكانة القسطنطينية وفتحها العظيم

ـ عالم فقدناه..

حوار مع الشيخ التشادي: د. يحيى عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ..

ـ النفعية الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

بينات

رؤيـــة المجلـــة:

تشـكيل وعي المسـلم في القضايا المعاصرة.

رسالـــة المجلـــة:

مجلـة تحقـق تأصيـل العلـوم الشرعيـة في المجـالات كافـة، وإعطـاء الرؤيـة الشرعيـة حول أوضـاع المسـلمين.

عـــن المجلـــة:

- هـي مجلـة دورية ربعيـة تصدر عـن (رابطـة علـماء المسـلمين)، وتهتـم بالقضايـا الشرعيـة والفكريـة والعلـوم الإنسـانية، ورصـد وتحليـل واسـتشراف مسـتقبل المسـلمين حـول العالم.

- مجلـة عالميـة تنتهـج منهج أهل السـنة والجماعة بعيداً عـن الغلو والتفريط.

- تخاطـب الدعـاة والعلـماء والمثقفـين والمفكريـن المهتمـين بنهضـة الأمـة وريادتهـا، وتحـث الهمـم وتحـرك القلـوب وتبعـث الطاقـات لمصلحـة الأمـة، وتحـرص عـلى بنـاء الأمـة عـلى العقيدة السـليمة والمنهج القويم ليفقـه واقعـه ويبنـي مواقفه على تأصيـل شرعـي قويـم.

bayyinatre@gmail.com

هيئـة التحرير

المشرف العـــام
الشيخ الدكتور محمد العبده

المستشـارون
د. حسن عباس
أ.د. حكمت الحريري
د. عادل الحمد
د. مراد القدسي
أ.د. محمد أمحزون
د. هشام برغش

سكرتير التحريـــر
م. محمد حسين

تصدر عن
رابطة علماء المسلمين

بيّنات

في هـــذا العـــدد

موضوعات العدد

الافتتاحية

■ الإسلام السياسي!
المشـــــرف العـــــام ٤

ملفات شرعية

■ ورود كلمة بيِّنات في آيات القرآن البيِّنات
د. كامـــــل صبحي صلاح ٦

■ لمحات وتبصُّرات وعقبات في طريق العلماء والدعاة (٢)
د. حكمت أحمد الحريري ٢٠

■ ماذا نفعل إذا تداعت علينا الأمم؟
د. عادل حسن الحمد ٢٤

النفعيـــــــة الإسلاميـــــــة
د. محمـد العبـــدة ٢٨

مكانة العلماء

■ عالم فقدناه..
حوار مع الشيخ التشادي: د. يحيى عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٣٥

قضايا فكرية

■ نظرة في حقوق الإنسان (٢)
م. محمد حسين محمد ٣٩

المسلمون حول العالم

■ مكانة القسطنطينية وفتحها العظيم
د. أنور بن قاسم الخضري ٤٣

رابطة علماء المسلمين

الرؤية:

تكوين مرجعية عالمية راشدة لإحياء دور العلماء في نهضة الأمة المسلمة.

الرسالة:

تجمع علمي منظم من علماء المسلمين يساهم في توحيد صفوف المسلمين وجمع كلمتهم؛ من خلال جمع طاقات العلماء، وتقديم حلول شرعية للقضايا المعاصرة وفق منهج أهل السنة والجماعة.

الأهداف:

(١) المساهمة في توحيد كلمة علماء الأمة وإبراز مكانتهم بين المسلمين.

(٢) استنباط الأحكام الشرعية للحوادث والنوازل وللقضايا المعاصرة، ورد الشبهات حول الإسلام ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفق منهج علمي وبيان ذلك للمسلمين.

(٣) كشف المخططات المعادية للإسلام والتصدي لها بشتى الوسائل المشروعة.

(٤) تحذير الأمة وحمايتها من المناهج والعقائد المنحرفة والتيارات الهدامة وبيان موقف الإسلام منها.

(٥) التواصل مع الهيئات الرسمية والمؤسسات العلمية والدعوية والإعلامية والخيرية فيما يحقق نهضة الأمة.

alimerdernegi@gmail.com

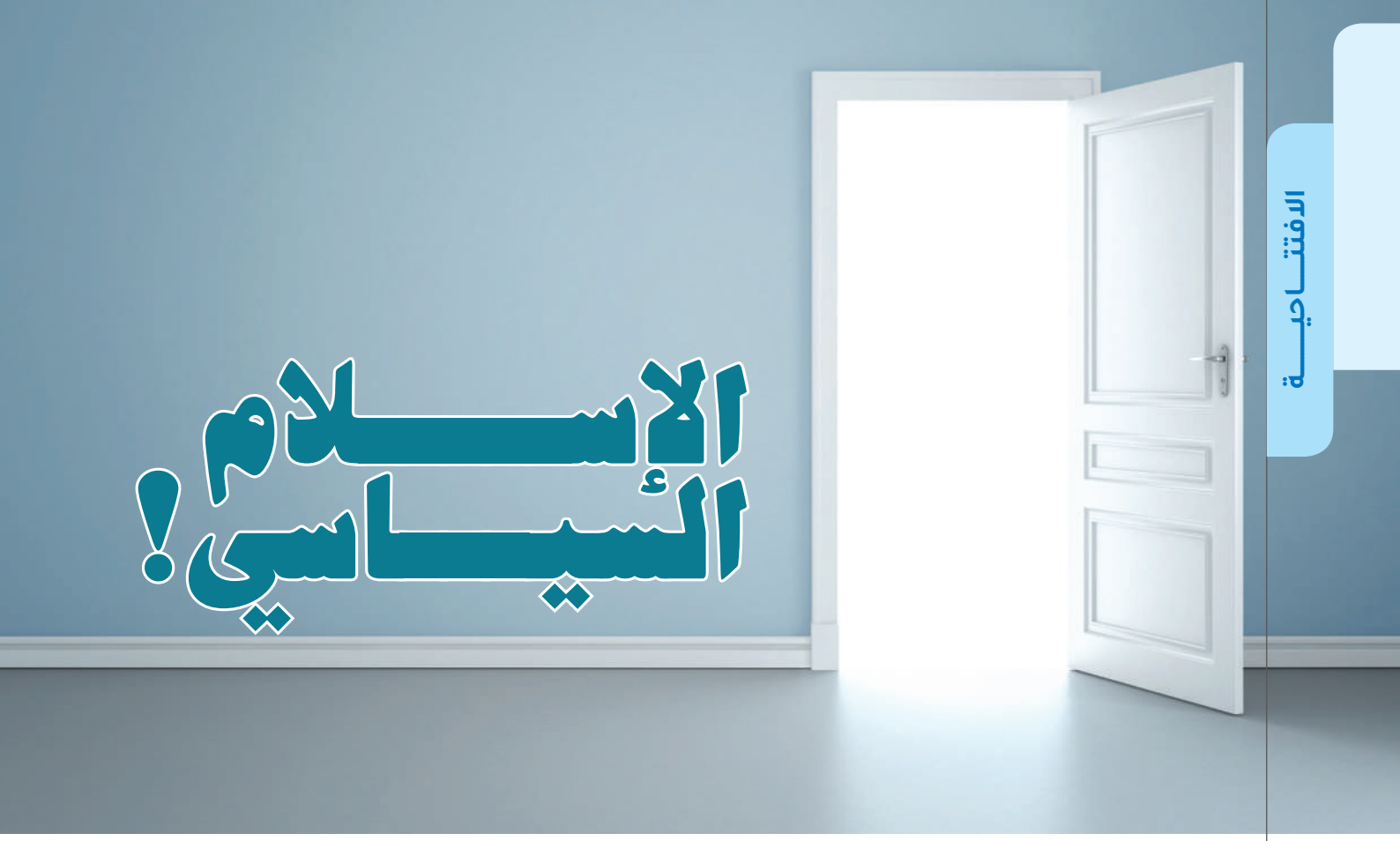

الإسلام السياسي!

في إشارة إلى أساليب اليهود الملتوية، ونفوسهم التي أكلها الحسد، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤﴾[1]، والملك العظيم إشارة إلى ملك داود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

طعن اليهود في نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: لو كان نبيّاً ما اشتغل بالسياسة والحكم، ولا أدخل اليهود (في المدينة) تحت طاعته، أي: تحت طاعة الدولة الإسلامية في الأحكام العامة، ولا عقد معهم المعاهدات. أليس منطق العلمانيين اليوم (وأمثالهم) هو منطق أهل الكتاب؟!

هؤلاء الذين كرهوا ما أنزل الله، وزَيَّن لهم الشيطان باطلهم، هؤلاء يشنعون على المسلمين أنهم يشتغلون بالسياسة، ويدخلون الدين في السياسة، والدين - في نظرهم - أسمى وأقدس من أن ينزل إلى دهاليز السياسة، ووحلها ومناوراتها، وكأنهم في الظاهر يحترمون الإسلام ويعظمونه؛ ولكنه في الحقيقة المكر الذي تعلموه من أسلافهم، ولذلك اخترعوا مصطلح (الإسلام السياسي)، وكأن هناك إسلاماً اجتماعياً وإسلاماً اقتصادياً، وإسلاماً فقهياً... وهذه تجزئة غير بريئة، وهم ممن يجعل القرآن عضين، والحقيقة أنّ الإسلام كلٌّ لا يتجزأ، وهو لا يدخل في السياسة إذا كانت تعني: الدجل والكذب والخداع.

(١) سورة النساء.

ولكن الإسلام من يوم أن بُعِث محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُدِّر له أن يكون نظاماً ينشر رحمة وعدلاً، ويقيم أمة وحكماً، ولا تعريف له إلا (الإسلام) الذي هو هداية للبشرية في كل عصر، وكل مكان، وهو هوية الأمة، ولا هويةَ لها غيره، وهو حضارتها وثقافتها، وهو عقيدتها وشريعتها. وكل محاولة لتجزئة الإسلام داخل إطار معين هي محاولة فاشلة، وإن كانت ماكرة.

لماذا لا يبيح العلمانيون بمكنون صدورهم، وتكون عندهم الشجاعة لأن يصرِّحوا بما في نفوسهم؟

ليس هناك إسلام سياسي ولكن هناك سياسة إسلامية تركن إلى المبادئ والأخلاق، ومن خلال المبادئ يمكننا الاجتهاد ضمن الظروف المحيطة بنا..

ليس هناك إسلام سياسي ولكن هناك سياسة إسلامية تركن إلى المبادئ والأخلاق، ومن خلال المبادئ يمكننا الاجتهاد ضمن الظروف المحيطة بنا، وعندما نحيا مع المبادئ يمكننا مواجهة آلاف التحديات والمتغيرات، وعندئذٍ يكون البحث عن المصالح العامة وليس المصالح الشخصية.

السياسة علمٌ وتجربة، وليست انتهازية تنقض العهود والوعود، فالسياسة التي تبتعد عن الأخلاق وتمارس الشر فإنها سوف تدمر نفسها في النهاية، والذين أرخّوا للحضارات وتحدثوا عن سقوط الأمم فإنهم يَعزُون السبب الأكبر لهذا السقوط إلى انحطاط الأخلاق. يقول الشيخ محمد عبد الله دراز: "من المُشاهد أنَّ حكماً علمانياً يمكن أن يستمر ويزدهر بالاتحاد والعدالة أكثر من حكم أدعياء الإيمان إذا ما ركنوا إلى الأخلاق المنحلة وإلى الفوضى والعصيان".

السياسة الإسلامية هي معرفة الحقوق والواجبات ومعرفة سنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في التقدم والتأخر، وهي السياسة اليقظة التي لا تنسى ولا تغفُل عن دروس التاريخ، ولا تغفُل عن مصارحة الأمة بأدوائها ولا إيهامها بما ليس محققاً، فإذا كان خطأ الجاهل بالطب يودي بحياة شخصٍ واحد فإن خطأ السياسي يودي بحياة أمة!

المشرف العام

ورود كلمة بيِّنات في آيات القرآن البيِّنات

د. كامـل صبحي صلاح

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

فقد قمت - بعون الله تعالى - باستقراء الآيات التي نصت على كلمة بَيِّنَات في القرآن الكريم؛ فوجدت أنها وردت في أربع وخمسين موضعاً في عدة صيغ، هي: (بَيِّنَة، بِبَيِّنَة، البَيِّنَة، مُبَيِّنَة، لنُبَيِّنَه، بَيِّنَات، البَيِّنَات).

ومن المعلوم أن لفظ البيِّنة هو اسم سورة من سور القرآن الكريم، وهي السُّورة رقم (٩٨) في ترتيب المصحف، وهي سورة مدنيَّة، عدد آياتها ثماني آيات.

ومن باب تمام الفائدة ذكرت تفسيراً مختصراً لهذه الآيات التي تم إيرادها في هذا البحث.

ولعل السبب الرئيس أولاً لكتابة هذا البحث هو بيان شيء من إعجاز وبلاغة القرآن الكريم الذي يحتوي على كنوز من العلوم والمعارف، وكيف لا يكون كذلك وهو من لدن حكيم خبير؟ جلت قدرته، وتعالت أسماؤه وصفاته، وعظمت آياته الباهرة الزاهرة، فهو كلام ربنا جَلَّوَعَلَا، وهو دستورنا في طريقنا لربنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وثانياً من أسباب هذا الجمع المبارك نشره في (مجلة بينات) التابعة للرابطة المباركة - رابطة علماء المسلمين -.

أسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن يجعله عملاً مباركاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به.

وقبل بيان وسوق الآية البينات، لا بد من ذكر معنى البينات لغة واصطلاحاً.

- البَيِّنة لغة: الحجة، والبرهان، والدليل.
- البينات اصطلاحاً: هي الحجج والأدلة والبراهين الواضحة الدالة على شيء ما، عامّاً كان أم خاصّاً.

وإليكم الآيات القرآنية النصية والمنطوقة للفظ البينات وصيغها:

■ ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١﴾ [سورة البقرة]

سل - أيها الرسول - بني إسرائيل المعاندين لك: كم أعطيناهم من آيات واضحات في كتبهم تهديهم إلى الحق، فكفروا بها كلها، وأعرضوا عنها، وحَرَّفوها عن مواضعها. ومن يبدل نعمة الله - وهي دينه - ويكفر بها من بعد معرفتها، وقيام الحجة عليه بها، فإن الله تعالى شديد العقاب له.

■ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [سورة النساء]

يا أيها الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله، لا يجوز لكم أن ترثوا نساء آبائكم كما يُورثُ المال، وتتصرفوا فيهن بالزواج بهن، أو تزويجهن ممن تشاؤون، أو منعهن من الزواج. ولا يجوز لكم إمساك أزواجكم اللاتي تكرهونهن للإضرار بهن، حتى يتنازلن لكم عن بعض ما أعطيتموهن من مهر وغيره، إلا أن يرتكبن فاحشة واضحة كالزنا، فإذا فعلن ذلك جاز لكم إمساكهن والتضييق عليهن حتى يفتدين منكم بما أعطيتموهن، وصاحبوا نساءكم صحبة طيبة، بكف الأذى وبذل الإحسان، فإن كرهتموهن لأمر دنيوي فاصبروا عليهن، فلعل الله يجعل فيما تكرهون خيراً كثيراً في الحياة الدنيا والآخرة.

*** من فوائد الآية:**

• ارتكاب فاحشة الزنا من أكثر المعاصي خطراً على الفرد والمجتمع، ولهذا جاءت العقوبات عليها شديدة.

• لطف الله ورحمته بعباده حيث فتح باب التوبة لكل مذنب، ويسر له أسبابها، وأعانه على سلوك سبيلها.

• كل من عصى الله تعالى بعمد أو بغير عمد فهو جاهل بقدر من عصاه جَلَّ وَعَلَا، وجاهل بآثار المعاصي وشؤمها عليه.

• من أسباب استمرار الحياة الزوجية أن يكون نظر الزوج متوازناً، فلا يحصر نظره فيما يكره، بل ينظر أيضاً إلى ما فيه من خير وقد يجعل الله فيه خيراً كثيراً.

■ ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧﴾ [سورة الأنعام]

قل - أيها الرسول لهؤلاء المشركين -: إني على بصيرة واضحة من شريعة الله التي أوحاها إليَّ، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، وقد كذَّبتم بهذا، وليس في قدرتي إنزال العذاب الذي تستعجلون به، وما الحكم في تأخر ذلك إلا إلى الله تعالى، يقصُّ الحقَّ، وهو خير مَن يفصل بين الحق والباطل بقضائه وحكمه.

■ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة الأنعام]

وكما بيَّنَّا في هذا القرآن للمشركين البراهين الظاهرة في أمر التوحيد والنبوة والمعاد نبيِّن لهم البراهين في كل ما جهلوه فيقولون عند ذلك كذباً: تعلمت من أهل الكتاب، ولنبين - بتصريفنا الآيات - الحقَّ لقوم يعلمونه، فيقبلونه ويتبعونه، وهم المؤمنون برسول الله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما أنزل عليه.

■ ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة الأنعام]

ولئلا تقولوا - أيها المشركون -: لو أنَّا أُنزل علينا كتاب من السماء، كما أُنزل على اليهود والنصارى، لكنَّا أشدَّ استقامة على طريق الحق منهم، فقد جاءكم كتاب بلسانكم العربي المبين، وذلك حجة واضحة من ربكم، وإرشاد إلى طريق الحق، ورحمةٌ لهذه الأمة. فلا أحد أشد ظلماً وعدواناً ممن كذَّب بحجج الله تعالى وأعرض عنها! فهؤلاء المعرضون سنعاقبهم عقاباً شديداً في نار جهنم بسبب إعراضهم عن آياتنا، وصدِّهم عن سبيلنا.

■ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الأعراف]

ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً لمَّا عبدوا الأوثان من دون الله تعالى. فقال صالح لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده، ليس لكم من إله يستحق العبادة غيره جَلَّ وَعَلَا، فأخلصوا له العبادة، قد جئتكم بالبرهان على صدق ما أدعوكم إليه، إذ دعوتُ الله أمامكم، فأخرج لكم من الصخرة ناقة عظيمة كما سألتم، فاتركوها تأكل في أرض الله من المراعي، ولا تتعرضوا لها بأي أذى، فيصيبكم بسبب ذلك عذاب موجع.

■ ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الأعراف]

ولقد أرسلنا إلى قبيلة (مدين) أخاهم شعيباً عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له ليس لكم من إله يستحق العبادة غيره جَلَّ وَعَلَا فأخلصوا له العبادة، قد جاءكم برهان من ربكم على صِدْق ما أدعوكم إليه، فأدوا للناس حقوقهم بإيفاء الكيل والميزان، ولا تنقصوهم حقوقهم فتظلموهم، ولا تفسدوا في الأرض - بالكفر والظلم - بعد إصلاحها بشرائع الأنبياء السابقين

عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ. ذلك الذي دعوتكم إليه خير لكم في دنياكم وأخراكم، إن كنتم مصدقيَّ فيما دعوتكم إليه، عاملين بشرع الله.

■ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾ [سورة الأعراف]

جدير بأن لا أقول على الله إلا الحق، وحريٌّ بي أن ألتزمه، قد جئتكم ببرهان وحجة باهرة من ربكم على صِدْق ما أذكره لكم، فأطلق - يا فرعون - معي بني إسرائيل مِن أَسْرك وقَهْرك، وخلِّ سبيلهم لعبادة الله.

■ ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢﴾ [سورة الأنفال]

واذكروا حينما كنتم على جانب الوادي الأقرب إلى (المدينة)، وعدوكم نازل بجانب الوادي الأقصى، وعِير التجارة في مكان أسفل منكم إلى ساحل (البحر الأحمر)، ولو حاولتم أن تضعوا موعداً لهذا اللقاء لاختلفتم، ولكنَّ الله جمعكم على غير ميعاد ليقضي أمراً كان مفعولاً بنصر أوليائه، وخِذْلان أعدائه بالقتل والأسر وذلك ليهلك من هلك منهم عن حجة لله ثبتت له فعاينها وقطعت عذره، وليحيا مَن حيَّ عن حجة لله قد ثبتت وظهرت له. وإن الله لسميع لأقوال الفريقين، لا يخفى عليه شيء، عليم بنيَّاتهم.

■ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾ [سورة هود]

أفمَن كان على حجة وبصيرة من ربه فيما يؤمن به، ويدعو إليه بالوحي الذي أنزل الله فيه هذه البينة، ويتلوها برهان آخر شاهد منه، وهو جبريل أو محمد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ويؤيد ذلك برهان ثالث من قبل القرآن، وهو التوراة - الكتاب الذي أنزل على موسى إماماً ورحمة لمن آمن به -، كمن كان همه الحياة الفانية بزينتها؟ أولئك يصدِّقون بهذا القرآن ويعملون بأحكامه، ومن يكفر بهذا القرآن من الذين تحزَّبوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجزاؤه النار، يَرِدُها لا محالة، فلا تك - أيها الرسول - في شك من أمر القرآن وكونه من عند الله تعالى بعد ما شهدت بذلك الأدلة والحجج، واعلم أن هذا الدين هو الحق من ربك، ولكن أكثر الناس لا يُصدِّقون ولا يعملون بما أُمروا به. وهذا توجيه عام لأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

■ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة هود]

قال نوح: يا قومي أرأيتم إن كنتُ على حجة ظاهرة من ربي فيما جئتكم به تبيِّن لكم أنني على الحق من عنده، وآتاني رحمة من عنده، وهي النبوة والرسالة فأخفاها عليكم بسبب جهلكم وغروركم، فهل يصح أن نُلْزمكم إياها بالإكراه وأنتم جاحدون بها؟ لا نفعل ذلك، ولكن نَكِل أمركم إلى الله حتى يقضي في أمركم ما يشاء.

■ ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة هود]

قالوا: يا هود ما جئتنا بحجة واضحة على صحة ما تدعونا إليه، وما نحن بتاركي آلهتنا التي نعبدها من أجل قولك، وما نحن بمصدِّقين لك فيما تدَّعيه.

■ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة هود]

قال صالح لقومه: يا قوم أخبروني إن كنت على برهان من الله وآتاني منه النبوة والحكمة، فمن الذي يدفع عني عقاب الله تعالى إن عصيته فلم أبلِّغ الرسالة وأنصحْ لكم؟ فما تزيدونني غير تضليل وإبعاد عن الخير.

■ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة هود]

قال شعيب: يا قوم أرأيتم إن كنت على طريق واضح من ربي فيما أدعوكم إليه من إخلاص العبادة له، وفيما أنهاكم عنه من إفساد المال، ورزقني منه رزقاً واسعاً حلالا طيباً؟ وما أريد أن أخالفكم فأرتكب أمراً نهيتكم عنه، وما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم قَدْر طاقتي واستطاعتي، وما توفيقي - في إصابة

الحق ومحاولة إصلاحكم - إلا بالله، على الله وحده توكلت وإليه أرجع بالتوبة والإنابة.

■ ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَ لَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣﴾ [سورة طه]

وقال مكذبوك - أيها الرسول -: هلا تأتينا بعلامة من ربك تدلُّ على صدقك، أولم يأتهم هذا القرآن المُصدِّق لما في الكتب السابقة من الحق؟

■ ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١﴾ [سورة البينة]

لم يكن الذين كفروا من اليهود والنصارى والمشركين تاركين كفرهم حتى تأتيهم العلامة التي وُعِدوا بها في الكتب السابقة.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ٤﴾ [سورة البينة]

وما اختلف الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى في كون محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولا حقاً لما يجدونه من نعته في كتابهم، إلا مِن بعد ما تبينوا أنه النبي الذي وُعِدوا به في التوراة والإنجيل، فكانوا مجتمعين على صحة نبوته، فلما بُعِث جحدوها وتفرقوا.

■ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [سورة البقرة]

ولقد أعطينا موسى التوراة، وأتبعناه برسل من بني إسرائيل، وأعطينا عيسى ابن مريم المعجزات الواضحات، وقوَّيناه بجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ. أفكلما جاءكم رسول بوحي من عند الله لا يوافق أهواءكم، استعليتم عليه، فكذَّبتم فريقاً وتقتلون فريقاً؟

■ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٩٢﴾ [سورة البقرة]

ولقد جاءكم نبي الله موسى بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقه، كالطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع، وغير ذلك مما ذكره الله في القرآن العظيم، ومع ذلك اتخذتم العجل معبوداً، بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه، وأنتم متجاوزون حدود الله تعالى.

■ ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩﴾ [سورة البقرة]

ولقد أنزلنا إليك - أيها الرسول - آيات بينات واضحات تدل على أنّك رسول من الله صدقاً وحقّاً، وما ينكر تلك الآيات إلا الخارجون عن دين الله.

■ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [سورة البقرة]

إن الذين يُخْفون ما أنزلنا من الآيات الواضحات الدالة على نبوة محمد

ﷺ وما جاء به، وهم أحبار اليهود وعلماء النصارى وغيرهم ممن يكتم ما أنزل الله من بعد ما أظهرناه للناس في التوراة والإنجيل، أولئك يطردهم الله من رحمته، ويدعو عليهم باللعنة جميع الخليقة.

■ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [سورة البقرة]

شهر رمضان الذي ابتدأ الله فيه إنزال القرآن في ليلة القدر هداية للناس إلى الحق، فيه أوضح الدلائل على هدى الله، وعلى الفارق بين الحق والباطل. فمن حضر منكم الشهر وكان صحيحاً مقيماً فليصم نهاره. ويُرخَّص للمريض والمسافر في الفطر، ثم يقضيان عدد تلك الأيام. يريد الله تعالى بكم اليسر والسهولة في شرائعه، ولا يريد بكم العسر والمشقة، ولتكملوا عدة الصيام شهراً، ولتختموا الصيام بتكبير الله في عيد الفطر، ولتعظموه على هدايته لكم، ولكي تشكروا له على ما أنعم به عليكم من الهداية والتوفيق والتيسير.

■ ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [سورة البقرة]

فإن انحرفتم عن طريق الحق، من بعد ما جاءتكم الحجج الواضحة من القرآن والسنة، فاعلموا أنَّ الله عزيز في ملكه لا يفوته شيء، حكيم في أمره ونهيه، يضع كل شيء في موضعه المناسب له.

■ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [سورة البقرة]

كان الناس جماعة واحدة، متفقين على الإيمان بالله ثم اختلفوا في دينهم، فبعث الله النبيين دعاة لدين الله، مبشرين مَن أطاع الله بالجنة، ومحذرين من كفر به وعصاه النار، وأنزل معهم الكتب السماوية بالحق الذي اشتملت عليه ليحكموا بما فيها بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اخْتَلَف في أمر محمد ﷺ وكتابه ظلماً وحسداً إلا الذين أعطاهم الله التوراة، وعرفوا ما فيها من الحجج والأحكام، فوفَّق الله المؤمنين بفضله إلى تمييز الحق من الباطل، ومعرفة ما اختلفوا فيه. والله يوفِّق من يشاء من عباده إلى طريق مستقيم.

■ ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ

مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ [سورة البقرة]

هؤلاء الرسل الكرام فضَّل الله بعضهم على بعض، بحسب ما منَّ الله به عليهم: فمنهم مَن كلمه الله كموسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وفي هذا إثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ على الوجه اللائق بجلاله، ومنهم مَن رفعه الله درجاتٍ عاليةً كمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، بعموم رسالته، وختم النبوة به، وتفضيل أمته على جميع الأمم، وغير ذلك. وآتى الله تعالى عيسى ابن مريم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ البينات المعجزات الباهرات، كإبراء مَن ولد أعمى بإذن الله تعالى، ومَن به برص بإذن الله، وكإحيائه الموتى بإذن الله، وأيده بجبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ. ولو شاء الله ألا يقتتل الذين جاؤوا مِن بعد هؤلاء الرسل مِن بعد ما جاءتهم البينات ما اقتتلوا، ولكن وقع الاختلاف بينهم: فمنهم مَن ثبت على إيمانه، ومنهم مَن أصر على كفره. ولو شاء الله بعد ما وقع الاختلاف بينهم - الموجب للاقتتال - ما اقتتلوا، ولكن الله يوفق مَن يشاء لطاعته والإيمان به، ويخذل مَن يشاء، فيعصيه ويكفر به، فهو يفعل ما يشاء ويختار.

■ ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة آل عمران]

كيف يوفق الله للإيمان به وبرسوله قوماً جحدوا نبوة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعد إيمانهم به، وشهدوا أن محمداً صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حق وما جاء به هو الحق، وجاءهم الحجج من عند الله والدلائل بصحة ذلك؟ والله لا يوفق للحق والصواب الجماعة الظلمة، وهم الذين عدلوا عن الحق إلى الباطل، فاختاروا الكفر على الإيمان.

■ ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة آل عمران]

في هذا البيت دلالات ظاهرات أنه من بناء إبراهيم، وأن الله عظَّمه وشرَّفه، منها: مقام إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وهو الحَجَر الذي كان يقف عليه حين كان يرفع القواعد من البيت هو وابنه إسماعيل، ومن دخل هذا البيت أَمِنَ على نفسه فلا يناله أحد بسوء. وقد أوجب الله على المستطيع من الناس في أي مكان قَصْدَ هذا البيت لأداء مناسك الحج. ومن جحد فريضة الحج فقد كفر، والله غني عنه وعن حجِّه وعمله، وعن سائر خَلْقه.

■ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة آل عمران]

ولا تكونوا - أيها المؤمنون - كأهل الكتاب الذين وقعت بينهم العداوة والبغضاء فتفرَّقوا شيعاً وأحزاباً، واختلفوا في أصول

دينهم من بعد أن اتضح لهم الحق، وأولئك مستحقون لعذابٍ عظيم موجع.

■ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾ [سورة آل عمران]

هؤلاء اليهود حين دُعُوا إلى الإسلام قالوا: إن الله أوصانا في التوراة ألا نصدِّق مَن جاءنا يقول: إنه رسول من الله، حتى يأتينا بصدقة يتقرب بها إلى الله، فتنزل نار من السماء فتحرقها. قل لهم - أيها الرسول -: أنتم كاذبون في قولكم لأنه قد جاء آباءكم رسلٌ من قِبلي بالمعجزات والدلائل على صدقهم، وبالذي قلتم من الإتيان بالقربان الذي تأكله النار، فَلِمَ قَتَل آباؤكم هؤلاء الأنبياء إن كنتم صادقين في دعواكم؟

■ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤﴾ [سورة آل عمران]

فإن كذَّبك - أيها الرسول - هؤلاء اليهود وغيرهم من أهل الكفر، فقد كذَّب المبطلون كثيراً من المرسلين مِن قبلك، جاءوا أقوامهم بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات، والكتب السماوية التي هي نور يكشف الظلمات، والكتاب البيِّن الواضح.

■ ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ١٥٣﴾ [سورة النساء]

يسألك اليهود - أيها الرسول - معجزة مثل معجزة موسى تشهد لك بالصدق: بأن تنزل عليهم صُحُفاً من الله مكتوبةً، مثل مجيء موسى بالألواح من عند الله، فلا تعجب - أيها الرسول - فقد سأل أسلافهم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ما هو أعظم: سألوه أن يريهم الله علانيةً، فَصُعِقوا بسبب ظلمهم أنفسهم حين سألوا أمراً ليس من حقِّهم. وبعد أن أحياهم الله بعد الصعق، وشاهدوا الآيات البينات على يد موسى القاطعة بنفي الشرك، عبدوا العجل من دون الله، فعَفونا عن عبادتهم العجل بسبب توبتهم، وآتينا موسى حجة عظيمة تؤيِّد صدق نُبُوَّته.

■ ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾ [سورة المائدة]

بسبب جناية القتل هذه شَرَعْنا لبني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض بأي نوع من أنواع الفساد، الموجب للقتل كالشرك والمحاربة فكأنما قتل الناس جميعاً فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله، وأنه من امتنع عن قَتْل نفس حرَّمها الله فكأنما أحيا الناس جميعاً فالحفاظ على

حرمة إنسان واحد حفاظ على حرمات الناس كلهم. ولقد أتت بني إسرائيل رسلُنا بالحجج والدلائل على صحة ما دعَوهم إليه من الإيمان بربهم، وأداء ما فُرِضَ عليهم، ثم إن كثيراً منهم بعد مجيء الرسل إليهم لمتجاوزون حدود الله بارتكاب محارم الله وترك أوامره.

■ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [سورة المائدة]

إذ قال الله يوم القيامة: يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك إذ خلقتك من غير أب، وعلى والدتك حيث اصطفيتها على نساء العالمين، وبرأتها مما نُسِب إليها، ومن هذه النعم على عيسى أنه قوَّاه وأعانه بجبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يكلم الناس وهو رضيع، ويدعوهم إلى الله وهو كبير بما أوحاه الله إليه من التوحيد، ومنها أن الله تعالى علَّمه الكتابة والخط بدون معلم، ووهبه قوة الفهم والإدراك، وعَلَّمه التوراة التي أنزلها على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والإنجيل الذي أنزل عليه هداية للناس، ومن هذه النعم أنه يصوِّر من الطين كهيئة الطير فينفخ في تلك الهيئة، فتكون طيراً بإذن الله، ومنها أنه يشفي الذي وُلِد أعمى فيبصر، ويشفي الأبرص، فيعود جلده سليماً بإذن الله، ومنها أنه يدعو الله أن يحييَ الموتى فيقومون من قبورهم أحياء، وذلك كله بإرادة الله تعالى وإذنه، وهي معجزات باهرة تؤيد نبوة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم يذكِّره الله جَلَّ وَعَلَا نعمته عليه إذ منع بني إسرائيل حين همُّوا بقتله، وقد جاءهم بالمعجزات الواضحة الدالة على نبوته، فقال الذين كفروا منهم: إنَّ ما جاء به عيسى من البينات سحر ظاهر.

■ ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة الأعراف]

تلك القرى التي تَقَدَّم ذِكْرُها، وهي قرى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، نقصُّ عليك - أيها الرسول - من أخبارها، وما كان من أَمْر رسل الله التي أرسلت إليهم، ما يحصل به عبرة للمعتبرين وازدجار للظالمين. ولقد جاءت أهلَ القرى رسلنا بالحجج البينات على صدقهم، فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب طغيانهم وتكذيبهم بالحق، ومثل خَتْمِ الله على قلوب هؤلاء الكافرين المذكورين يختم الله على قلوب الكافرين بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

■ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا

كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾ [سورة التوبة]

ألم يأت هؤلاء المنافقين خبرُ الذين مضوا مِن قوم نوح وقبيلة عاد وقبيلة ثمود وقوم إبراهيم وأصحاب (مدين) وقوم لوط عندما جاءهم المرسلون بالوحي وبآيات الله فكذَّبوهم؟ فأنزل الله بهؤلاء جميعاً عذابه انتقاماً منهم لسوء عملهم، فما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم بالتكذيب والمخالفة.

■ ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة يونس]

ولقد أهلكنا الأمم التي كذَّبت رسل الله من قبلكم - أيها المشركون بربهم - لَمَّا أشركوا، وجاءتهم رسلهم من عند الله بالمعجزات الواضحات والحجج التي تبين صدق مَن جاء بها، فلم تكن هذه الأمم التي أهلكناها لتصدق رسلها وتنقاد لها، فاستحقوا الهلاك، ومثل ذلك الإهلاك نجزي كل مجرم متجاوز حدود الله.

■ ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة يونس]

ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى أقوامهم (هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً وغيرَهم) فجاء كل رسول قومه بالمعجزات الدالة على رسالته، وعلى صحة ما دعاهم إليه، فما كانوا ليصدِّقوا ويعملوا بما كذَّب به قوم نوح ومَن سبقهم من الأمم الخالية. وكما ختم الله على قلوب هؤلاء الأقوام فلم يؤمنوا، كذلك يختم على قلوب مَن شابههم ممن بعدهم من الذين تجاوزوا حدود الله، وخالفوا ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته عقوبة لهم على معاصيهم.

■ ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾﴾ [سورة إبراهيم]

ألم يأتكم - يا أمَّة محمد - خبر الأمم التي سبقتكم، قوم نوح وقوم هود وقوم صالح، والأمم التي بعدهم، لا يحصي عددهم إلا الله، جاءتهم رسلهم بالبراهين الواضحات، فعضُّوا أيديهم غيظاً واستنكافاً عن قَبول الإيمان، وقالوا لرسلهم: إنا لا نصدِّق بما جئتمونا به، وإنا لفي شكٍّ مما تدعوننا إليه من الإيمان والتوحيد موجب للريبة.

■ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة النحل]

وأَرْسَلْنا الرسل السابقين بالدلائل الواضحة وبالكتب السماوية، وأنزلنا إليك - أيها الرسول - القرآن لتوضح للناس ما خفي مِن معانيه وأحكامه، ولكي يتدبروه ويهتدوا به.

■ ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾ [سورة طه]

قال السحرة لفرعون: لن نفضلك، فنطيعك، ونتبع دينك، على ما جاءنا به موسى من البينات الدالة على صدقه ووجوب متابعته وطاعة ربه، ولن نُفَضِّل ربوبيتك المزعومة على ربوبية اللهِ الذي خلقنا، فافعل ما أنت فاعل بنا، إنما سلطانك في هذه الحياة الدنيا، وما تفعله بنا، ما هو إلا عذاب منتهٍ بانتهائها.

■ ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾ [سورة العنكبوت]

وأهلكنا قارون وفرعون وهامان، ولقد جاءهم جميعاً موسى بالأدلة الواضحة، فتعاظموا في الأرض، واستكبروا فيها، ولم يكونوا ليفوتوننا، بل كنا مقتدرين عليهم.

■ ﴿أَوَ لَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [سورة الروم]

أولم يَسِرْ هؤلاء المكذبون بالله الغافلون عن الآخرة في الأرض سَيْرَ تأمل واعتبار، فيشاهدوا كيف كان جزاء الأمم الذين كذَّبوا برسل الله كعاد وثمود؟ وقد كانوا أقوى منهم أجساماً، وأقدر على التمتع بالحياة حيث حرثوا الأرض وزرعوها، وبنَوْا القصور وسكنوها، فعَمَروا دنياهم أكثر مما عَمَر أهل (مكة) دنياهم، فلم تنفعهم عِمارتهم ولا طول مدتهم، وجاءتهم رسلهم بالحجج الظاهرة والبراهين الساطعة، فكذَّبوهم فأهلكهم الله، ولم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم بالشرك والعصيان.

■ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [سورة الروم]

ولقد أرسلنا مِن قبلك - أيها الرسول - رسلاً إلى قومهم مبشرين ومنذرين يدعونهم إلى التوحيد، ويحذرونهم من الشرك، فجاؤوهم بالمعجزات والبراهين الساطعة، فكفر أكثرهم بربهم، فانتقمنا من الذين اكتسبوا السيئات منهم، فأهلكناهم، ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل، وكذلك نفعل بالمكذبين بك إن استمروا على تكذيبك، ولم يؤمنوا.

■ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥﴾ [سورة فاطر]

وإن يكذبك هؤلاء المشركون فقد كذَّب الذين مِن قبلهم رسلهم الذين جاؤوهم بالمعجزات الواضحات الدالة على نبوتهم، وجاؤوهم بالكتب المجموع فيها كثير من الأحكام، وبالكتاب المنير الموضح لطريق الخير والشر.

■ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٢﴾ [سورة غافر]

ذلك العذاب الذي حلَّ بالمكذبين السابقين، كان بسبب موقفهم من رسل الله الذين جاؤوا بالدلائل القاطعة على صدق دعواهم، فكفروا بهم، وكذَّبوهم، فأخذهم الله بعقابه، إنه سبحانه قوي لا يغلبه أحد، شديد العقاب لمن كفر به وعصاه.

■ ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة غافر]

وقال رجل مؤمن بالله من آل فرعون، يكتم إيمانه منكراً على قومه: كيف تستحلون قَتْلَ رجل لا جرم له عندكم إلا أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبراهين القاطعة مِن ربكم على صِدْق ما يقول؟ فإن يك موسى كاذباً فإنَّ وبالَ كذبه عائد عليه وحده، وإن يك صادقاً لحقكم بعض الذي يتوعَّدكم به، إن الله لا يوفق للحق مَن هو متجاوز للحد، بترك الحق والإقبال على الباطل، كذَّاب بنسبته ما أسرف فيه إلى الله.

■ ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة غافر]

ولقد أرسل اللهُ إليكم النبيَّ الكريم يوسف بن يعقوب عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ من قبل موسى، بالدلائل الواضحة على صدقه، وأمركم بعبادة الله وحده لا شريك له، فما زلتم مرتابين مما جاءكم به في حياته، حتى إذا مات ازداد شككم وشرككم، وقلتم: إن الله لن يرسل من بعده رسولاً، مثل ذلك الضلال يُضِلُّ الله كل متجاوز للحق، شاكٍّ في وحدانية الله تعالى، فلا يوفقه إلى الهدى والرشاد.

■ ﴿قَالُوٓا۟ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة غافر]

قال خزنة جهنم لهم توبيخاً: هذا الدعاء لا ينفعكم في شيء، أولم تأتكم رسلكم بالحجج الواضحة من الله فكذبتموهم؟ فاعترف الجاحدون بذلك وقالوا: بلى. فتبرأ خزنة جهنم منهم وقالوا: نحن لا ندعو لكم، ولا نشفع فيكم، فادعوا أنتم، ولكن هذا الدعاء لا يغني شيئاً لأنكم كافرون. وما دعاء الكافرين إلا في ضياع لا يُقبل، ولا يُستجاب.

■ ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة غافر]

قل - أيها الرسول - لمشركي قومك: إني نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله، لَمَّا جاءني الآيات الواضحات من عند ربي، وأمرني أن أخضع وأنقاد بالطاعة التامة له، سبحانه رب العالمين.

■ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة غافر]

فلما جاءت هؤلاء الأمم المكذبة رسلُها بالدلائل الواضحات، فرحوا جهلاً منهم بما عندهم من العلم المناقض لما جاءت به الرسل، وحلَّ بهم من العذاب ما كانوا يستعجلون به رسلَهم على سبيل السخرية والاستهزاء. وفي الآية دليل على أن كل علم يناقض الإسلام، أو يقدح فيه، أو يشكك في صحته، فإنه مذموم ممقوت، ومعتقده ليس من أتباع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

■ ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الزخرف]

ولما جاء عيسى بني إسرائيل بالبينات الواضحات من الأدلة قال: قد جئتكم بالنبوة، ولأبيِّن لكم بعض الذي تختلفون فيه من أمور الدين، فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأطيعون فيما أمرتكم به من تقوى الله وطاعته.

■ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحديد]

لقد أرسلنا رسلنا بالحجج الواضحات، وأنزلنا معهم الكتاب بالأحكام والشرائع، وأنزلنا الميزان ليتعامل الناس بينهم بالعدل، وأنزلنا لهم الحديد، فيه قوة شديدة، ومنافع للناس متعددة، وليعلم الله علماً ظاهراً للخلق من ينصر دينه ورسله بالغيب. إن الله قوي لا يُقْهَر، عزيز لا يغالَب.

■ ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [سورة الصف]

واذكر - أيها الرسول لقومك - حين قال عيسى ابن مريم لقومه: إني رسول الله إليكم، مصدِّقاً لما جاء قبلي من التوراة، وشاهداً بصدق رسول يأتي من بعدي اسمه (أحمد)، وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وداعياً إلى التصديق به، فلما جاءهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالآيات الواضحات، قالوا: هذا الذي جئتنا به سحر بيِّن.

■ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [سورة التغابن]

ذلك الذي أصابهم في الدنيا، وما يصيبهم في الآخرة بسبب أنهم كانت تأتيهم رسل الله بالآيات البينات والمعجزات الواضحات، فقالوا منكرين: أبشر مثلنا يرشدوننا؟ فكفروا بالله وجحدوا رسالة رسله، وأعرضوا عن الحق فلم يقبلوه. واستغنى الله، والله غني، له الغنى التام المطلق، حميد في أقواله وأفعاله وصفاته لا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم شيئاً.

لمحات وتبصُّرات وعقبات في طريق العلماء والدعاة (٢)

د. حكمـــت أحمـــد الحريـــري

وما كان عطاء ربك محظوراً:

إن هذه الدنيا بمتاعها وزخرفها يعطيها الله تعالى لمن يشاء أن يعطيه فيها إذا أخذ بالأسباب المؤدية إلى ذلك، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾[1].

فالله تعالى المتصرف الحاكم الذي لا يجور، يعطي كلاً ما يستحقه من الشقاوة والسعادة، ولا رادَّ لحكمه، ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ أي ممنوعاً أو منقوصاً. انظر كيف فضل بعضهم على بعض في الدنيا؛ فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً وبين ذلك[2].

وعطاء الله تعالى للمؤمن والكافر لا بد له من الأخذ بالأسباب المؤدية لذلك، حيث بيَّن لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قصة ذي القرنين: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾[3].

ولكي لا يغتر الكفرة بما آتاهم الله من متاع الدنيا وزخرفها، ولئلا يخدع بعض المؤمنين بما يمد الله به المشركين من أسباب الدنيا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ

(١) سورة الإسراء.

(٢) انظر: تفسير الآيات في تفسير ابن كثير والبيضاوي وابن جزي.

(٣) سورة الكهف.

أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾[1].

إن الروم في زماننا قد أخذوا بأسباب التمكين والظهور والغلبة في الدنيا من خلال العدل الذي أقاموه بينهم وحسن معالجتهم للأمور وصدقهم في دنياهم.

فالكفار قاسوا أمر الدنيا على الآخرة وظنوا أن الله كما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا لا يعذبهم في الآخرة. فرد عليهم بأن بسط الرزق وقبضه في الدنيا معلق بمشيئة الله تعالى، فقد يوسع الله على الكافر وعلى العاصي ويضيق على المؤمن والمطيع والعكس أيضاً، فليس في ذلك دليل على أمر الآخرة.

(١) سورة سبأ.

إن الروم في زماننا قد أخذوا بأسباب التمكين والظهور والغلبة في الدنيا من خلال العدل الذي أقاموه بينهم وحسن معالجتهم للأمور وصدقهم في دنياهم.

وتأمل فيما يلي من ذكر الخصال التي توفرت فيهم حتى يكونوا أكثر الناس.

عن المستورد ابن شداد الفهري: "تقوم الساعة والروم أكثر الناس". فقال له عمرو بن العاص: "أبصر ما تقول"، فقال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ؛ قال: "لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة وأسرعهم إفاقة عند مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة وجميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك"[2].ولا أدل على صحة وصدق ما ذكرناه مما هو واقع اليوم، فما من يوم يمضي إلا وتنقل وسائل الأخبار عن لجوء العشرات بل المئات إلى دول أوروبا، وصار الروم هم الذين يدافعون عن حقوق الإنسان ظاهراً! بل هم الوسطاء الذين يصلحون بين الفئات المختلفة في بلاد المسلمين؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها:

إن التكاليف الشرعية من التزام الطاعات وترك المعاصي هي من الأمانة التي حملها الإنسان، وليست الأمانة مقتصرة على

(٢) صحيح مسلم رقم ٢٨٩٨.

الطاعات، بل هي شاملة لأمور الدنيا والدين؛ فالعلم أمانة في ذمة العلماء والدعاة، والعدل في الحكم والقضاء أمانة في ذمة القضاة والحكام، وحسن الإدارة أمانة في ذمة من يتولى مركزاً يعمل فيه جماعة من الناس، والجندي في معسكره، والعامل في مصنعه، والحرفي في حرفته، والعامل في خدمة سيده، والطالب في مدرسته، والمرأة في بيت زوجها. كل إنسان في المجتمع منوط به حمل الأمانة في الجهة التي هو فيها أياً كان مركزه ومكانته، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1]، والمراد تعظيم شأن الأمانة وأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السماوات والأرض والجبال لأبين حملها وأشفقن منها وحملها الإنسان. أي التزام الإنسان القيام بالتكاليف مع شدة ذلك وصعوبته على الأجرام التي هي أعظم منه، ولذلك وصفه الله بأنه ظلوم جهول[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾[3].

التكاليف المتعلقة بالدنيا والآخرة هي من الأمانة التي أوجب الله تعالى على العباد أدائها وصيانتها والقيام بها حق قيام.

لكن المتأمل في واقع الناس اليوم يرى الخلل في تحمل الأمانة ويلاحظ الخيانة في الأمانة، ومُؤدَّى هذا إلى فساد الحياة وفقدان الأمن وعدم الاستقرار؛ لأن من الخيانة عدم تحمل المسؤولية وأخذ الإنسان ما ليس له بحق، وما أكثر حصول هذا ووقوعه في بلادنا! وهذا من علامات الساعة.

المتأمل في واقع الناس اليوم يرى الخلل في تحمل الأمانة ويلاحظ الخيانة في الأمانة، ومُؤدَّى هذا إلى فساد الحياة وفقدان الأمن وعدم الاستقرار؛ لأن من الخيانة عدم تحمل المسؤولية وأخذ الإنسان ما ليس له بحق، وما أكثر حصول هذا ووقوعه في بلادنا! وهذا من علامات الساعة.

وفي الحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة))، قيل يا رسول الله: وما الرويبضة؟ قال: ((الرجل التافه يتكلم في أمر العامة))[4].

(١) سورة الأحزاب.
(٢) انظر: تفسير الآية في ابن جزي.
(٣) سورة النساء.
(٤) صحيح سنن ابن ماجة ٣٢٧٧.

وعن حذيفة بن اليمان: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، فرأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر. حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ونزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة. ثم حدثنا عن رفعها قال: ((ينام الرجل نومة فتُقبض الأمانة من قلبه؛ فيبقى أثرها مثل الوكت، ثم ينام الرجل نومة فتقبض الأمانة من قلبه؛ فيبقى أثرها مثل المجل، كجمر دحرجته على رجلك فتراه منتبراً وليس فيه شيء؛ فيصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، وحتى يقال للرجل: ما أجلده وأظرفه وأعقله! وليس في قلبه مثقال حبة خردل من خير)). ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيُّكم بايعته، لئن كان مؤمناً ليردنَّه على دينه، ولئن كان يهودياً أو نصرانياً ليردنه على ساعيه، فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلاناً وفلاناً[1].

(غريب الألفاظ في الحديث: الوكت: الأثر اليسير. المجل: ارتفاع في الجلد يظهر في اليد أو الرجل يصير مثل القبة يمتلئ ماءاً. ما أجلده: ما أقواه. ما أظرفه: ما أحسن وجهه وهيئته. ما أعقله: ما أقوى عقله وتفكيره. أتى علي زمان وما أبالي: الصدر الأول في ذلك الزمان لا أبالي في مبايعتي لأحد في البيع والشراء لاستقرار الأمانة).

إن مما يدمي القلب ويثير الحسرة ويهيج الأحزان والأشجان أن تقوم الاحتفالات، ويقوم الناس الرعاع بل أتباع الفتنة ومن هم يحسبون عِليَة القوم، يخرجون للاحتفال بزعيم رهبان بابا النصارى، ويستقبلونه بالحفاوة والتكريم في الجزيرة العربية، ليس ببعيد عن مهبط الوحي في مكة المكرمة والمدينة المنورة! في الوقت الذي يضيق على العلماء بل يسجنون ويعذبون في سجون منفردة، ويمنعون من تعليم الناس والدعوة إلى الله والإيمان بالله وتوحيده سبحانه!

الاحتفاء بالبابا النصراني تحت مسمى ودعوى التسامح وحرية التدين!

أين التسامح وأين الحرية فيما نراه يحل بأهل الإيمان وعلماء الإسلام من الإهانة والتهجير والتشريد والتعذيب؟

أين التسامح وأين الحرية فيما نراه يحل بأهل الإيمان وعلماء الإسلام من الإهانة والتهجير والتشريد والتعذيب؟ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وهل يستوي عند العقلاء من يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً هو ومن يقول إنَّ الله هو المسيح ابن مريم، ومن يقول إنَّ الله ثالث ثلاثة أو يقول عزير ابن الله؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) صحيح ابن حبان ٦٧٦٢.

ماذا نفعل إذا تداعت علينا الأمم؟

د. عـــادل حســـن الحمـــد

عندما يخبرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأخبار المستقبلية الدالة على مراحل الضعف التي ستمر بها الأمة فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقصد بهذا الإخبار الاستسلام لها والرضا بها، لأن هذا يتنافى مع طبيعة الرسالة التي أرسل بها، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[1]، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينذرنا بهذه الأخبار لنستعد لها ونتعامل معها وفق السنن الربانية، وخاصة سنة المدافعة، ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾[2].

فلا يصح منا أن نذكر هذه الأخبار وننزلها على الواقع من غير ذكر سبل المواجهة والتغيير، خاصة مع حالة الإحباط التي يشعر بها كثير من الناس اليوم.

(١) سورة فاطر: ٢٤.
(٢) سورة البقرة.

وقد أخبرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتداعي الأمم علينا، فقال: ((يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا))، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: ((بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ))، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: ((حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))[3].

وإننا لنلاحظ اليوم بشكل واضح أن دول الغرب المتمثلة في أمريكا وأوروبا - ومعهم اليهود ومنافقو العرب وطغاة الحكام في بلاد المسلمين - قد أجمعوا أمرهم على محاربة الإسلام وعلماء المسلمين والمسلمين، وفرض العلمانية والفسق والفجور في مجتمعات المسلمين ومعاقبة

(٣) رواه أبو داود وأحمد.

كل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، حتى هُجِّر الناس من ديارهم وساحوا في الأرض يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانا. فكيف نواجه هذا التداعي؟

يمكننا أن نواجه هذا التداعي بعدة طرق أذكر منها ما هو ميسر لعامة المسلمين من الرجال والنساء عسى الله أن يجعلنا من حماة دينه وينصر بنا الإسلام والمسلمين:

أولاً: لا تكن من الغثاء:

بين لنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حال الأمة عندما تتداعى عليها الأمم فقال: ((بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ))، فالعلة ليست في قلة العدد ولكن العلة في نوعية غالب الناس، وهم الغثاء. ومعنى الغثاء بينه الطيبي فقال: ((ما يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ زَبَدٍ وَوَسَخٍ، شَبَّهَهُمْ بِهِ لِقِلَّةِ شَجَاعَتِهِمْ، وَدَنَاءَةِ قَدْرِهِمْ، وَخِفَّةِ أَحْلَامِهِمْ))[1]. فأعداد الأمة كثيرة جدّاً ولكن غالبيتها من هذا النوع، فلا تكن منهم.

ثانياً: ارجع إلى دينك:

إذا كان الهدف من تداعي الأمم علينا هو إبعادنا عن الإسلام؛ وإذا كان السبب في الذل الواقع علينا هو بعدنا عن الإسلام، فالحل لمواجهة هذا التداعي علينا هو في العودة إلى الإسلام.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ))[2].

> **لا يصح منا أن نذكر هذه الأخبار وننزلها على الواقع من غير ذكر سبل المواجهة والتغيير، خاصة مع حالة الإحباط التي يشعر بها كثير من الناس اليوم.**

ثالثاً: اثبت على دينك:

أكبر وسيلة تهزم بها الكفار هي ثباتك على الإسلام؛ لأنهم إنما يحاربوننا لصدنا عن دين الله، فإذا استجبنا لهم تحقق مقصدهم من صدنا عن الإسلام، وعاقبنا ربنا بنزع المهابة منا من صدور عدونا. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾[3]، فثباتك على الإسلام إحباط لحربهم ونجاة من أن تحشر معهم في جهنم، فانصر دينك بالثبات عليه.

رابعاً: أظهر شعائر الإسلام:

إظهار شعائر الإسلام وإبرازها للناس نوع من الثبات على الدين، وتشجيع للآخرين على الثبات، ومقاومة للمنافقين الذين يريدون صد الناس عن الدين ونشر الفساد في الأرض، وإغاظة للكافرين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟

(١) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٣٦٦).
(٢) رواه أبو داود.
(٣) سورة البقرة.

مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾[1].

فإظهارك لشعائر الإسلام يغيظ الكفار، وإغاظة الكفار هو عمل صالح من جهة يجعله الله في موازين حسناتك، ومن جهة أخرى هو مقاومة للكفار والمنافقين وأعوانهم.

خامساً: اعمر قلبك بحب الآخرة:

من عوامل قوة المسلم في مواجهة تداعي الأمم عليه أن يعمر قلبه بحب الآخرة، ويخرج منه التشبث بالدنيا. ويتحقق هذا الإعمار بالقيام بالأعمال التي افترضها الله علينا من الشعائر التعبدية وأداء حقوق العباد ممن لهم حق علينا، ثم الازدياد من النوافل والأعمال التطوعية بمختلف أنواعها، فإذا فعل المسلم ذلك امتلأ قلبه بحب الآخرة، وقذف الله في قلوب الكفار الهيبة منه.

إظهارك لشعائر الإسلام يغيظ الكفار، وإغاظة الكفار هو عمل صالح من جهة يجعله الله في موازين حسناتك، ومن جهة أخرى هو مقاومة للكفار والمنافقين وأعوانهم..

سادساً: انشر الخير بين الناس:

كل إنسان يمتلك موهبة وله ميول، فاستثمر موهبتك وميولك في نشر الخير وربط الناس بربهم.

سابعاً: اكشف سبل المجرمين:

فضح مخططات الأعداء والكشف عن أسمائهم وحقيقتهم يحبط مؤامراتهم. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾[2].

ثامناً: الدعاء على رموز الكفر والظلم والنفاق:

أمرنا الله بقتال أئمة الكفر، فقال: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ

(١) سورة التوبة.

(٢) سورة الأنعام.

فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[1]. فإذا عجزنا عن قتالهم، فهل نعجز عن الدعاء عليهم، كما دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صناديد قري؟

ومثلهم المنافقون والظلمة الكبار الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، فهؤلاء يدعى عليهم حتى يريح الله العباد والبلاد منهم.

تاسعاً: اعمل مع إخوانك:

أمرنا الله تعالى بالعمل الجماعي فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[2]؛ فتعاون مع إخوانك في مواجهة أعداء الإسلام؛ فإن الاجتماع قوة والتفرق ضعف.

عاشراً: حدث نفسك بالأمور العظيمة:

حتى لا تموت نفسك في زمن تداعي الأمم علينا، وتخاذل الكثيرين عن نصرة الإسلام، حدث نفسك بالقيام بالأمور العظيمة التي لا يقوم بها إلا الصادقون مع الله، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ))[3].

(١) سورة التوبة.
(٢) سورة المائدة: ٢.
(٣) رواه مسلم وأبو داود.

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ صَادِقاً، بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ))[4].

من عوامل قوة المسلم في مواجهة تداعي الأمم عليه أن يعمر قلبه بحب الآخرة، ويخرج منه التشبث بالدنيا. ويتحقق هذا الإعمار بالقيام بالأعمال التي افترضها الله علينا من الشعائر التعبدية وأداء حقوق العباد ممن لهم حق علينا، ثم الازدياد من النوافل والأعمال التطوعية بمختلف أنواعها، فإذا فعل المسلم ذلك امتلأ قلبه بحب الآخرة، وقذف الله في قلوب الكفار الهيبة منه.

وقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ))[5].

فإن عجزت عن الفعل فلا تعجز عن النية الصالحة الصادقة.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لنصرة دينه وإعلاء كلمته في الأرض.

(٤) رواه مسلم وأبو داود.
(٥) رواه النسائي.

النفعية الإسلامية

د. محمد العبـــــدة

كانت السنة النبوية واضحة، وكان ما فقهه الجيل الأول من القرآن والسنة واضحاً: أن ثمرة العلم هو العمل والتطبيق في كل ما يحتاجه الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وكل ما يؤدي إلى السعادة في الآخرة. وهذا الاتجاه وهذا الفهم للدين يبعد الإنسان عن الخوض فيما لا ينفعه، أو ليس من اختصاصه أو قدرته، حتى لا يضيع وقته في جدل عقيم أو خيالات لا تسمن ولا تغني من جوع. وقد تعوَّذ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعائه من علم لا ينفع.

وكانت توجيهات القرآن الكريم واضحة، فلم تقتصر الآيات على بيان الثواب أو العقاب في الآخرة، بل ذكرت آثار الإيمان ومنافعه في الدنيا قبل الآخرة، وحذرت من الكفر وعدم شكر النعم، وبينت أضرار ذلك في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[1]، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[2]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[3].

إن من الحياة الطيبة: التمكين في الأرض للصالحين ووفرة الخيرات في الأرض، والصحة النفسية التي تساعد على الصحة الجسدية، كما أن تطبيق الأوامر الشرعية فيه حياة للناس، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

(١) سورة الأعراف.
(٢) سورة الأنبياء.
(٣) سورة النحل.

﴿١٧٩﴾[1]، وفي المقابل يقدم القرآن أمثلة عن آثار العمل الضار. ويصف الشقاء الذي يقع فيه الذين يبتعدون عن الإيمان والأعمال الصالحة، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[2]، ومن آثار البعد عن الإيمان تمزق المجتمعات والفرقة والشقاق، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[3]، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[4]، وقد نعى الله سبحانه على المشركين أنهم يعبدون أوثاناً لا تضر ولا تنفع، وهذا يدل على منتهى الجهل وقلة العقل عند هؤلاء الأقوام، ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾[5]، وقال تعالى عن قصة بني إسرائيل واتخاذهم العجل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾[6]، وذلك لأن معيار النفع والضرر هو شيء فطري في الإنسان، فهو يختار ما ينفعه ويبتعد عما يضره، إلا إذا انحرفت فطرته فأصبح يميل إلى الأشياء الضارة.

(١) سورة البقرة.
(٢) سورة طه.
(٣) سورة الأنعام.
(٤) سورة الجاثية.
(٥) سورة الأعراف.
(٦) سورة طه: ٨٩.

أفاض القران الكريم في ذكر النعم الدنيوية التي حباها الله للإنسان كي يتمتع بها ويشكر الله عليها ويستفيد منها، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾[7]، كما دعا الناس إلى التمتع بالطيبات، ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[8]، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[9]، ففي هذه الآيات اتجاه إلى الطبيعة ورؤيتها والاستفادة منها، فالمسلم ليس في صراع مع الطبيعة كما في الثقافة الغربية، فالغايات العليا التي أرادها الله للانسان لها ارتباط بالعلم المادي، ومن ثم لها بعدها النفعي.

(٧) سورة النحل.
(٨) سورة فاطر.
(٩) سورة النمل: ٦٠.

كان التوجيه القرآني والسنة النبوية نحو الاهتمام بالعمل وبالنتائج وليس بالبحث عما ليس في مكنة الإنسان، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾[1]، فهذا سؤال عن وقتها، وهذا في علم الله وحده سبحانه، ولكن يكفي الانسان أن يعلم أنها واقعة، وأنها يوم الحساب، وعندما سئل الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها قال للسائل: ((ماذا أعددت لها))، وذلك إعراضاً عن صريح سؤاله إلى ما يتعلق مما فيه فائدة للسائل، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[2]، وهذا يفيد أنهم لم يجابوا إلى سؤالهم وأن هذا مما لا يحتاج إليه في التكليف، وذلك لأن الغاية من الجهود التربوية في الإسلام أن تحصل الاستقامة، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾، والمطلوب هو المعرفة النافعة التي تسهم بوضوح في سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وقد أعطانا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العقل والفكر لنستخدمهما فيما ينفع ويفيد، روى الإمام مالك عن القاسم بن محمد بن أبي بكر أنه قال: "أدركت الناس وما يعجبهم القول، إنما يعجبهم العمل"[3]، وروي الإمام الزهري عن زيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان إذا سئل عن أمر يقول: أكان هذا؟ فإن قالوا: نعم؛ حدَّث فيه بالذي يعلم، وإن قالوا: لم يكن؛ قال: فذروه حتى يكون[4]. ومن هذا الفقه العملي عند أئمة أهل السنة ما قاله الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأكره أن ينسب أحد حتى يبلغ آدم، ولا إلى إبراهيم ومن يخبره من بينه وبين ابراهيم؟"[5]، فهذا الإمام يرى أن الانشغال بأنساب غير مؤكدة هو من الترف الفكري الذي لا يغني شيئاً، وهو ينتقد الذين يذكرون النسب بالأسماء بين محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

والمطلوب هو المعرفة النافعة التي تسهم بوضوح في سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وقد أعطانا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العقل والفكر لنستخدمهما فيما ينفع ويفيد ...

ومن هذا الفقه قال الإمام مالك قولته المشهورة: "لا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل"، وقد أثنى القران الكريم كثيراً على الخاشعين في الصلاة، والمعرضين عن اللغو، والصابرين في البأساء والضراء، والآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، والمجاهدين في سبيل الله. وقد أكدت التوجيهات النبوية على هذا المنهج وأن على المسلمين ألا يخوضوا في أمور لا توصل إلى نتيجة، بل تؤدي بهم إلى الترف

(١) سورة النازعات.
(٢) سورة الإسراء: ٨٥.
(٣) الشاطبي، الموافقات: ١/ ٦٥.
(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٣٨.
(٥) ابن أبي زيد القيرواني، الجامع في السنن والآداب: ٢٥٩.

والضلال، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لا يزال الناس يسألون يقولون ما كذا وما كذا، حتى يقولون الله خالق الناس فمن خلق الله، فعند ذلك يضلون))[1]. وفي رواية البخاري قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربَّك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينتهِ))، وقد جاء في الأثر: تفكروا في المخلوق ولا تتفكروا في الخالق؛ "لأن التفكير والتقدير يكون في الأمثال المضروبة والمقاييس، وذلك يكون في الأمور المتشابهة وهي المخلوقات، وأما الخالق جَلَّ جَلَالُهُ فليس له شبيه ولا نظير، فالتفكر الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه، وإنما هو معلوم بالفطرة"[2]، والله سبحانه يُعرف بآثاره وصفاته وأسمائه ولا يسأل عن كنهه.

فالمقصود التفكر في خلق الله الذي يؤدي إلى تعظيم الخالق والخضوع له ولدينه ولشرعه، ... والتفكر المنهي عنه هو الذي مبناه على القياس، وهذا مبدأ الانحراف عندما قاسوا الخالق على المخلوق..

فالمقصود التفكر في خلق الله الذي يؤدي إلى تعظيم الخالق والخضوع له ولدينه ولشرعه، وقد أحسن شيخ الإسلام عندما ذكر أن التفكر المنهي عنه هو الذي مبناه على القياس، وهذا مبدأ الانحراف عندما قاسوا الخالق على المخلوق، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[3]، ولكن المسلمين وفي القرن الثاني للهجرة وبعد أن ترجمت كتب اليونان الفلسفية خاضوا فيما نُهوا عنه، وتكلموا في الذات والصفات، نفياً للصفات وليس تعظيماً لها، وخاضوا على غير منهج صحيح في مفهوم الإيمان والقضاء والقدر، وجلبوا مصطلحات يونانية، ونتج عن ذلك ما سمي (بعلم الكلام)، وقام الجدل على ساقه والردود التي لم تنته حتى الآن. لقد شقوا من النهر الأصلي ترعاً من هنا وهناك، وأشغلوا الناس بما لا ينفع فلا أقاموا ديناً على الوجه الصحيح ولا أقاموا دنيا، والذين يسمون فلاسفة في التراث الاسلامي مثل ابن سينا والفارابي كانوا مقلدة للفلاسفة اليونانيين، وهم يفسرون الخلق بنظرية (الفيض) فالخلق تم دون قصد من الله سبحانه، ولكن فاض عنه العقل الأول كما يصدر الضوء عن الشمس؟! والمغالطة التي وقع فيها هؤلاء هي: ما دام هؤلاء اليونانيون قد أتوا بشيء مهم ومفيد في الطب والرياضيات وبعض العلوم الطبيعية فمعنى هذا أنهم أتوا بشيء صحيح في الإلهيات، وهذا غلط

(١) ابن أبي عاصم، السنة: ١/ ٢٩٣.
(٢) ابن تيمية، الفتاوى: ٤/ ٤٠.
(٣) سورة الأنعام.

فاحش، فبعض الفلاسفة اليونانيين كانوا يعبدون الكواكب، و(أرسطو) يعتقد أن الإله خلق العالم ثم تركه، وهو لا يفكر إلا في ذاته، أي أن إله أرسطو مثل صانع الساعة السويسرية، وهي المغالطة نفسها التي يستعملها الأوربيون مع غيرهم، يقولون: ما دمنا نحن أقوى سياسياً واقتصادياً وعسكرياً فنحن على حق فكرياً وحضارياً.

أساء منهج علم الكلام إلى روح الحضارة الاسلامية وثقافتها، وهذا لا يعني أن المنهج الأساسي في العلم والعمل قد غاب عن أنظار كثير من علماء المسلمين الذين كتبوا في أنحاء شتى من الفنون، وهو المنهج الاستقرائي الذي ينتقل من الجزئيات إلى الكليات. الذي يهتم بالتجربة الحسية واستخدام العقل للوصول إلى المعرفة، وهو المنهج الذي دل عليه القرآن الكريم ...

لقد أساء منهج علم الكلام إلى روح الحضارة الاسلامية وثقافتها، وهذا لا يعني أن المنهج الأساسي في العلم والعمل قد غاب عن أنظار كثير من علماء المسلمين الذين كتبوا في أنحاء شتى من الفنون، وهو المنهج الاستقرائي الذي ينتقل من الجزئيات إلى الكليات. الذي يهتم بالتجربة الحسية واستخدام العقل للوصول إلى المعرفة، وهو المنهج الذي دل عليه القرآن الكريم، ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾[1]، وهو منهج دراسة الكون وما فيه منافع للإنسان، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾[2]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾[3]، فقد نفى دعواهم لانتفاء المشاهدة، فمن أين أتوا بتلك الدعوى؟ وكثيراً ما نسمع بعض العلماء يقولون: هذا أمر يشهد به الحس والتجربة!

وبسبب استمرار هذا المنهج في التراث الإسلامي برز علماء كبار في مقاصد الشريعة وفي الطب والهندسة وسائر العلوم الطبيعية، ومن هذا المنهج استقت أوروبا بداية نهضتها وهو ما عرف بالمنهج التجريبي الذي أخذه (بيكون) من الحضارة الإسلامية في الأندلس.

الغرب والمنهج البراغماتي:

كان من نتائج المنهج التجريبي أن ظهر في بريطانيا ثم انتقل إلى أمريكا المذهب (النفعي) أو (البراغماتي) pragmatism

(١) سورة النحل.
(٢) سورة الانشقاق.
(٣) سورة الكهف: ٥١.

. وكان رائد هذا المذهب أو هذه النظرية الفيلسوف البريطاني (جيريمي بنثام) (١٧٤٨-١٨٣٢م)، الذي اشتهر بالتركيز على حرية الفرد والحرية الاقتصادية والفصل بين الكنيسة والدولة، وخلاصة هذا المذهب كما يقول أحد فلاسفته (تشارلس بيرس): "إذا كان لديك فكرة وأردت تحديداً لمضمونها فانظر ماذا عسى أن يكون لها من نتائج تطبيقية في دنيا العمل، ثم اجمع هذه النتائج يكن لك قوام فكرتك"[١]، أي أننا عوضاً عن أن نتساءل عن مصدر الفكرة وأصلها، وبعيداً عن الحتميات والأشياء الأولية فإن البراغماتية تتساءل عن النتائج، عن الثمرة، فالفكرة هي صواب إذا كانت نتائجها مما يسعف ظروف حياتنا العملية ويفيدنا في حل مشاكلنا، وليس المقصود المنفعة الشخصية، بل ما قامت التجربة على صدقها لتحسين الأوضاع العامة، يقول الفيلسوف البريطاني (فرانسيس بيكون): "إن إنفاقك في الدراسة النظرية وقتاً طويلاً هو ضرب من الكسل والخمول، ومحبة في الظهور...".

ترسخ هذا الاتجاه نحو الأفكار التي لها تطبيق عملي في دنيا الواقع وابتعد عن الإغراق في التنظير أو حفظ معلومات لا تفيد شيئاً في الحياة العملية، يقول أحد دعاتهم المشهور باهتماماته التربوية (جون ديوي): "بدل أن يعرف الطالب أسماء جبال منطقة المتجمد الجنوبي. نعلمه كيف يربي حيواناً أو كيف يزرع نباتاً".

أفاد هذا الاتجاه في البلاد التي ظهر فيها أكثر من بلاد أخرى وهذا ما جعل الفيلسوف الفرنسي (غوستاف لوبون) يصف الشعب الانكليزي بأنه: "ذو تصور صحيح يسمح لصاحبه بإدراك الجهة العملية في المحسوسات، ولا يضل في أبحاث وهمية"[٢]، وهو يعني بالذين يضلون في أبحاث وهمية الشعب الفرنسي. ولكن هذا المذهب النفعي أو الذرائعي كما يوصف أيضاً، وإن أفاد حين ابتعد عن التنظير الكثير، إلا أنه تطرَّف في الاتجاه المادي الذي لا يبالي بالمبادئ إذا كانت الفكرة تقدم له نفعاً دنيوياً، كما تطرف في تمجيد النزعة الفردية على حساب المجتمع، وأدخلوا الدين أيضاً في دائرة النفع، يقولون: إذا كان فيه نفع لنا، يريح ضمائرنا ويبعث فينا القدرة والرجاء والخيرية ويطابق أشواقنا النفسية فلا بأس به كما يقول كبير فلاسفة البراغماتية الأمريكية (وليم جيمس).

وهو لا يتحدث عن دين معين بل يقصد أي دين، يقول: "نحن نرى المؤمن متفائلاً، مستبشراً بحياته، وهو على خلاف زميله المنكر (للدين) نراه متشائماً، منقبض النفس معدوم الرجاء، فهذا يجعل لعبارة الدين معنى"، أي لا بأس أن نؤمن بالله في المسائل التي لا تثبت بالتجربة العملية إن

(١) زكي نجيب محمود، ثقافتنا في مواجهة العصر: ٤٤.

(٢) سر تطور الأمم: ٩٧.

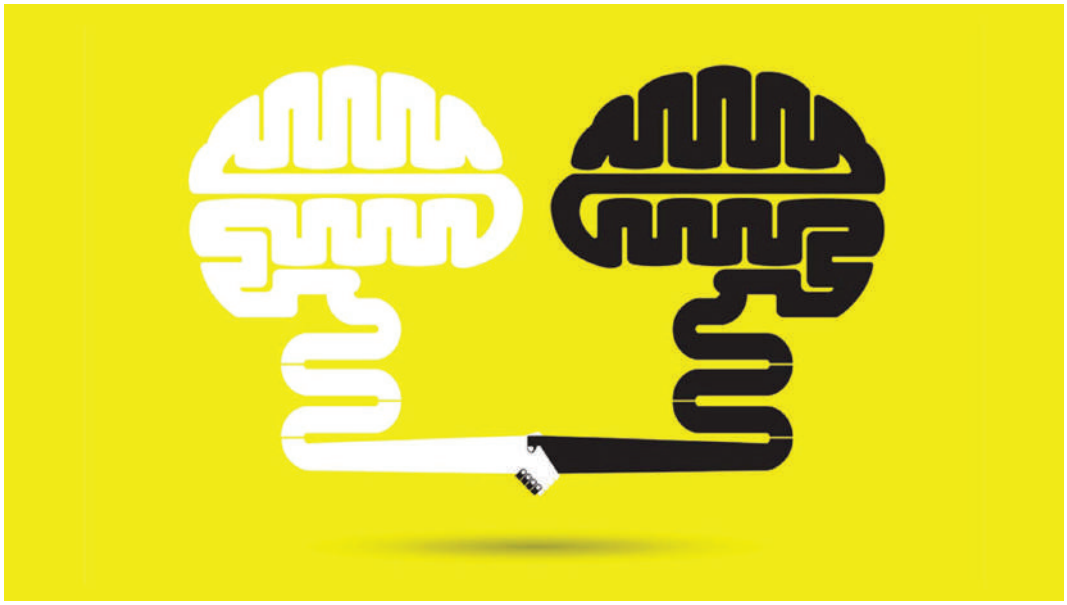

كان هذا الإيمان يساعدنا في بعض جوانب حياتنا فالحق أصبح عند (جيمس) وأمثاله هو كالسلعة، ليست قيمتها في ذاتها بل في الثمن الذي يدفع فيها، حتى أصبح مصطلح (البراغماتية) مرادفاً للانتهازية.

إن النفعية البراغماتية قد توفر النفع في ميادين، ولكنها تفرز الضرر في ميادين أخرى، وهذا شيء طبيعي في كل نظرية إنسانية تبتعد عن منهج النبوات والوحي السماوي وإن كان فيها جزء من الحق.

ولكن الإسلام ليس كذلك، فرغم الاعتراف بأهمية النفع المادي للإنسان، ولكن هناك مبادئ عليا التي لا تجر نفعاً مادياً، مثل قول الصدق ولو أدى إلى ضرر شخصي للمسلم، ومثل قول كلمة الحق أمام سلطان جائر، ومثل العمل التطوعي والعمل الخيري، والدعوي، ولو أدى إلى اضطهاد الدعاة أحياناً وتعرضهم لأنواع الأذى، ولكنهم يصبرون ويتحملون، وليس وراء ذلك نفع مادي. ثم هناك أمور في الإسلام يحدد الشرع فيها ما هو النافع وما هو الضار، وليس ما يحدده مذهب معين أو طريقة معينة، والشيء النافع الذي يحدده الشرع هو الذي ينسجم مع التصور الإسلامي للوجود. ومع سنن الله الكونية، وإذا كانت النفعية البراغماتية توفر النفع في أمور معينة إلا أن القران الكريم يقدم أمثلة لمنافع العمل الصالح في الدنيا والآخرة.

يقول الشيخ ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن ما يشتمل عليه الكتاب والسنة من أخبار عالم الغيب إنما قصد منه لفت العقول والقلوب إلى ما وراء المحسوس حتى يؤمنوا به مجملاً، ثم يقبلوا إلى تعلم علم يرجى منه دراية وعملاً، إنه أجدر بأهل العلم في الأمة الاسلامية الاهتمام بتمحيص ما ينبني عليه عمل نجيح أو اعتقاد صحيح، وأن يوفروا زمانهم فيما هم إليه أحوج، فإن الزمان نفيس"[1].

(١) تحقيقات في القرآن والسنة: ١٥٨.

حوار مع عالم فقدناه..
الشيخ التشادي:
د. يحيى عبد الله

توفي الشيخ يحيى عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أيام قليلة من إجراء هذا اللقاء معه، إثر حادث سير في بلده جمهورية تشاد، وكانت وفاته في يوم الاثنين ٢٨ شوال ١٤٤٠هـ - ١ يوليو ٢٠١٩م.

حدثنا - فضيلة الشيخ - عن الاسم كاملاً، ومولدكم، والنشأة العلمية، وأين أكملتم الدراسات الجامعية؟

أشكر هيئة تحرير (مجلة بينات) التابعة لرابطة علماء المسلمين على تفضُّلها بإجراء هذا اللقاء، وأسأل الله أن يوفق القائمين عليها.

اسمي يحيى عبد الله أحمد، من مواليد ١٩٥٨م في مدينة شكوية شرق البلاد. أولاً قرأت القرآن الكريم على الوالد. بعد حفظ القرآن بدأت أدرس العلم الشرعي مع المشايخ في الحلقات في القرية، أخذت معهم ثماني سنوات، وبعد ذلك التحقت بمدينة (أبشة) التي تبعد ثمانين كيلو شمالاً، ودخلت في المعهد العلمي وقبلت في المرحلة الإعدادية في الصف الأول، وبعدها مباشرة نقلوني للصف الرابع، ثم لما أكملت الصف الرابع نقلت للمرحلة الثانوية الصف الثالث، ثم أخذت الشهادة الثانوية ١٩٧٨م، وفي ذلك الوقت لم تكن هناك جامعات، ثم رجعت للحلقات ودرست الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية واللغة العربية وأُجزت من عدة مشايخ، ثم التحقت بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية فدرست المرحلة الجامعية، ثم انتقلت إلى السودان والتحقت بجامعة القرآن الكريم، وحضرت الماجستير والدكتوراه في قسم التفسير وعلوم القرآن.

هل يمكن أن تذكر لنا أهم المناصب العلمية التي تقلدتموها والمؤسسات التي تمثلون فيها؟

عندما كنت في السودان درَّست في جامعة الخرطوم قسم الثقافة الإسلامية لمدة سبع سنوات وأيضاً درَّست في معاهد أخرى، وفي تشاد أسَّستُ (جمعية الرشاد الخيرية للتنمية)، وعملت فيها زمناً، ثم تطورت وصارت (منظمة الرشاد للتنمية)

فاشتغلت فيها عدة سنين، ثم أسَّستُ مجموعة من المعاهد فأسست (معهد الرشاد لتأهيل الحفاظ) في العاصمة، و(أكاديمية الرشاد لتأهيل الحفاظ) في مدينة (أبشة). وهذان المعهدان يستقبلان الطلاب الذين حفظوا القرآن الكريم ولم يلتحقوا بالمدارس أصلاً، فندرسهم سنة تمهيدية ثم يلتحقون بالمرحلة الإعدادية، وقد نجحا والحمد لله نجاحاً كبيراً؛ فإن الطلاب وعلى مدى ثلاث سنوات يحرزون المراتب الأولى في الشهادة الثانوية على مستوى الدولة، سواء في المدارس الفرنسية أو العربية، وقد أخذوا جوائز وشهادات من الدولة على هذا السبق، ثم أسَّستُ (مركز نون للبحوث والدراسات التنموية) ولا زلت رئيس مجلس الإدارة فيه، كما أرأسُ مجلس إدارة (جمعية القرآن الكريم والعلوم الإسلامية) والتي مقرها في العاصمة، ومن مؤسسي اتحاد العلماء، ودرَّست مدة قليلة في (جامعة الملك فيصل) في الدراسات العليا في فقه النوازل.

كيف ترون حالة الدعوة في تشاد؟

اللغة العربية، هل ما زالت تتمتع بوجودها القوي في تشاد؟ كم عدد

الناطقين بها اليوم في سكان تشاد بنظركم؟

تتراوح الإحصاءات حول الإسلام في تشاد ما بين من يقلله حد الـ ٥٣٪ من السكان، ومن يتحدث عن ٨٥٪ أو ما يفوق ذلك، فأي الأرقام أدق؟ وهل من إحصاءات موثوقة في هذا الصدد؟

حالة الدعوة في تشاد في تقديري مبشرة، ولا توجد فيها عراقيل كبيرة، والدعاة ينشطون حسب طاقتهم، أما اللغة العربية فهي موجودة في تشاد، وأكاد أجزم أن كل التشاديين بإمكانهم فهم اللغة العربية وإن كانت قدرات الحديث بها متفاوتة، فهي اللغة الوحيدة الجامعة؛ لأن اللغات المحلية تربو على المئتين، فاللغة العربية لغة الشارع ولغة السوق فهي منتشرة في كل تشاد، فالعربي إذا جاء إلى تشاد لا يحتاج إلى مترجم، أما الإحصائيات فتختلف من وقت لآخر، فحتى في عهد الرئيس السابق غير المسلم كانت النسب ٨٥٪ مسلمون و٥٪ نصارى، و١٠٪ وثنيون، والآن بدأت النسب تتغير، فيقول بعضهم أن نسبة المسلمين بضع وخمسون في المئة، ولكن هذه الإحصائيات سياسية يُراد بها أغراض أخرى! والواقع غير ذلك؛ لأن الإسلام ينتشر أسرع من غيره وأكثر، ففي الجنوب الذي أكثره كان على غير الإسلام أصبحت قرى بكاملها تدين بالإسلام.

مع تراجع الصحوة الإسلامية في العالم العربي، ماذا عن تشاد؟ وهل هناك مبشرات لعودة دينية واضحة في تشاد؟

الصحوة الإسلامية في تشاد في تقدم نوعاً ما، فنرى الاهتمام بالعلم والتعليم، وارتياد المساجد صار ظاهراً ملموساً، والمرأةُ اليَقَظَةُ فيها أكثر من الرجل، فنرى في كل حي مراكز محو الأمية التي يدرس فيها النساء ويتعلمن أمور دينهن، ونرى النساء يتزايدن على هذه المراكز، كذلك الحجاب في أوساط النساء صار هو الغالب على الشارع، وأستطيع أن أقول إن وضع الصحوة في تشاد مبشر - إن شاء الله -.

ما الذي يعرقل الدعوة في تشاد في نظركم؟

أما العراقيل فإن أهم معرقل هو عدم وحدة جهود الدعاة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، صحيح ليس هناك صراع ولكن ليست هناك وحدة وضمٌّ للصفوف، فلو أنهم ضموا صفوفهم وتعاونوا مع (المجلس الأعلى للشؤون

الإسلامية) - وقد فتح أبوابه للجميع - لكان في ذلك الخير الكثير، وليست هناك عراقيل كثيرة، وليس هناك من يعترض على تعليم الناس؛ ففي أي مكان أو أي تجمع للناس في المساجد أو المناسبات الاجتماعية.

ذلك من المشكلات قلة وسائل الحركة التي تعين الدعاة للتحرك في داخل تشاد بعد التطورات العالمية الأخيرة التي أثرت على المنظمات التي كانت تسد شيئاً من هذه الفجوة.

هلَّا حدثتنا - فضيلة الشيخ - عن موقف التشيع والتنصير في تشاد وجهود علماء أهل السنة في مقاومتهما؟

بالنسبة للتشيع والتنصير، التشيع غير موجود في تشاد بشكل ظاهر وهم أفراد يظهرون هنا وهناك، وقد رُصِدَ بعض هؤلاء، لكن التشيع لم يُكتب له القبول والانتشار في المجتمع، أما المؤسسات التنصيرية في تشاد فكثيرة جداً وتكثر في أماكن المسلمين؛ فهم يستغلون الحاجة المادية للناس، لكن - والحمد لله - لا يكاد يستجيب لهم أحد، ولا يترك أحد الإسلام إلا قليلاً من ضعاف النفوس، أما علماء أهل السنة فجهودهم كثيرة، ولكن لأن التشيع ليس ظاهرة اجتماعية لا يكون التصدي لها علناً وإنما حسب الوضع.

ماذا عن علاقة الدعوة الإسلامية في تشاد مع الجيران؟ سواء بالسودان أم في منطقة الساحل؟

علاقة الدعوة مع السودان قوية بحكم التداخل القبلي والحدود المفتوحة وسهولة التنقل، وبعض الناس لهم بيت في السودان وبيت في تشاد، وهذا ترك تأثيراً وتأثراً قوياً من الناحية الدعوية، أما الدول المجاورة الأخرى فإن تأثير تشاد على الدعوة في إفريقيا الوسطى قوي جداً؛ فتجد المعلمين في الدروس وحلقات التحفيظ جلهم من التشاديين، فتأثير تشاد على إفريقيا الوسطى أكثر من غيرها، أما في الكاميرون خاصة في المدن القريبة من تشاد فإن تأثير التشاديين جيد جداً، أما الدول الأخرى فالتأثير ضعيف نوعاً ما.

لماذا تبدو تشاد بعيدة نسبياً في الثقافة والاجتماع عن الدول العربية برغم اشتراك الشعب التشادي معها في التحدث باللغة العربية؟

تشاد بعيدة نوعاً ما جغرافياً عن الدول العربية رغم قوة اللغة العربية في تشاد، ولكن كثيراً من الدول العربية لم يكونوا يعلمون أن اللغة العربية هي اللغة التي تجمع كل أبناء الشعب التشادي، ولا شك أن الممالك الإسلامية قبل دخول المستعمر كانت تعتمد اللغة العربية في المخاطبة والتدريس، ولا يوجد حرف مكتوب باللغات المحلية وإنما يكتبون باللغة العربية، فعدم معرفة الدول العربية بواقع تشاد لعله هو السبب في بعد تشاد من المحيط العربي، ولكن الآن مع دخول المنظمات الخيرية اتضح الأمر أكثر بالنسبة للدول العربية، فصاروا يتعرفون على المجتمع التشادي وقبائله العربية وانتشار اللغة العربية فيه، وتعرفوا على قربه اللغوي والثقافي من الدول العربية، كذلك من أسباب البعد الثقافة الفرنسية، والتي سياستها طمس هوية وثقافة الشعوب وإحلال الثقافة الفرنسية مكانها. ونسأل الله أن ييسر أمر الدعوة ويزيل عنها العقبات..

نظرة في حقوق الإنسان (٢)

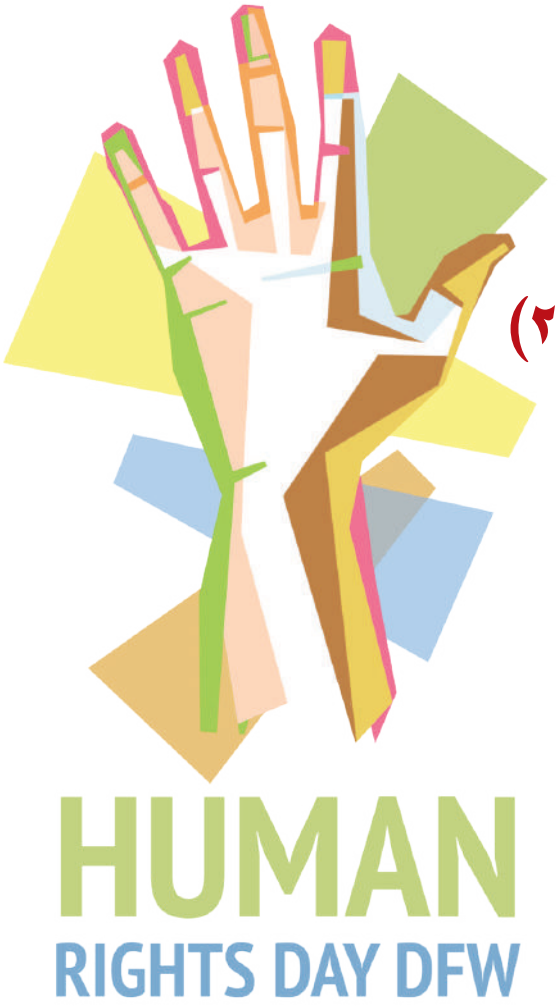

م. محمد حسين محمد
باحث وكاتب سوداني

مدخل:

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وبعد، فقد تكلمنا في المقال السابق عن تاريخ فكرة حقوق الإنسان في المجتمع الغربي والجذور والأصول الفلسفية التي ترتكز عليها، وأهم الاعتراضات عليها من الفلسفات الأخرى، وفي مقالنا هذا سنتناول المفهوم الغربي لحقوق الإنسان من النظرة الشرعية.

مقدمة:

لم تعرف البشرية منذ خلق الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نظاماً ولا ديناً اهتم بتقرير الحقوق والتشريعات التي تصونها وتحفظها مثل دين الإسلام، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾(١)، وقال جل في علاه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾(٢)، فقد بين الله في هذه الآية مكانة الإنسان ورتبته بين المخلوقات، فقد فضَّله الله على أكثر مخلوقاته وجعله مكرماً وسخر له ما في السموات والأرض لينتفع به ويؤمِّن رفاهيته، وشرع الله في دين الإسلام ما يتوافق مع هذه النظرة للإنسان، فتشريعات الإسلام كلها تكريم ورفعة للإنسان، فأحل الله له الطيبات وحرم عليه الخبائث، ومفهوم الطيبات والخبائث في الإسلام لا يقتصر على المطعوم والمشروب فقط، بل يتعداه لكل ما يخص الإنسان، فالأخلاق منها طيب وخبيث، والأفعال منها طيب وخبيث.. وهكذا.

وليس غرضنا في هذا المقال استعراض الحقوق التي أثبتها الله لبني آدم، ولكنَّا نريد فقط المقارنة بين نظام وأسس حقوق الإنسان في الإسلام وتلك الموجودة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، وذلك لنبين عظمة النظام الحقوقي في الإسلام وقصور ونقص النظام الحقوقي الغربي.

(١) سورة التغابن.
(٢) سورة الإسراء.

مجالات المقارنة:

أولاً: مصدر الحقوق:

في الإسلام مصدر الحقوق هو شريعة الله تعالى، فالحقوق هنا منحة إلهية وهبة ربانية لا يجوز لأحد من الناس مصادرتها أو إلغاؤها، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[1]؛ فهذا التفضيل والتكريم حكم إلهي لا يُنسخ ولا يُرد، فالله تعالى هو الذي خلق الخلق وهو الذي رتب أصنافهم وسخر هذا لذاك، وجعل صفوة مخلوقاته الإنسان.

تتسق نظرة حقوق الإنسان بالنظرة الشاملة للمسلم مع الحياة، فالمسلم ينظر للكون والمخلوقات باعتبارها من صنع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن صانعها هو الذي شرع لنا كيفية التعامل معها، فحقوق الإنسان تتموضع مع حقوق الحيوان وحقوق البيئة وقبل ذلك حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتتكامل هذه الحقوق وتتعاضد لتقيم حياة كريمة يأخذ فيها كل صاحب حق حقه.

تتسق نظرة حقوق الإنسان بالنظرة الشاملة للمسلم مع الحياة، فالمسلم ينظر للكون والمخلوقات باعتبارها من صنع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن صانعها هو الذي شرع لنا كيفية التعامل معها.

بينما في النظرة الغربية نجد أن مصدر الحقوق هي الطبيعة، ولهذا عددٌ من الإشكالات، نذكر منها:

(١) أن الحقوق بهذه الطريقة تكون نسبية ولا تأخذ صفةً معيارية مطلقة، فلكل فيلسوف أو حقوقي النظر في هذه

(١) سورة الإسراء.

الطبيعة واستخلاص الحقوق منها، مما يفتح باب الاختلاف عليها، وهو ما حصل فعلاً كما نبهنا في المقال السابق من الاختلاف الكبير بين الشيوعية والليبرالية في حقوق الإنسان رغم اتفاقهم أنَّ مصدر الحقوق هو الطبيعة.

(٢) الحقوق الطبيعية قد يكون فيها تعدٍّ على بعض المخلوقات، كما نرى في العالم الغربي مثل سجن الحيوانات وتعذيبها من أجل متعة الإنسان ورفاهيته كما يحصل في مهرجانات السيرك وغيرها، ومثل ذلك التعدي على النباتات والبيئة العامة لمصلحة الإنسان العاجلة، أما عندما تكون شريعة الله هي مصدر الحقوق فإنها توازن بين الحقوق بحيث لا يتعدى أحد المخلوقات على حق غيره قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1].

ثانياً: بين الحقوق والأخلاق:

من مساوئ النظرة الغربية لحقوق الإنسان ذلك الفصل المشين بين الحقوق والأخلاق، ويظهر ذلك مثلاً في دعواهم لحقوق الشواذ والمساواة (الجندرية) بين الرجل والمرأة والتي تعني نهاية الأسرة، إذ في مفهوم الجندر يتحول دور الأم من مهمة للأنثى إلى مهمة اجتماعية يمكن أن يقوم بها الذكر والأنثى وكذلك دور الأبوة.

ومن أبين الأمثلة على هذه التفرقة بين الحقوق والأخلاق ادعاؤهم حق المرأة في المتاجرة بعرضها وجسدها والبغاء وتكسب المال من الفواحش.

في شريعة الله تجد الوسطية والاعتدال، فلا تنفصل منظومة القيم عن منظومة الأخلاق، فلا يحق لأحد من الناس تجاوز القيم الأخلاقية والمجتمعية بدعوى الحرية الشخصية، فهذه الأخلاق مربوطة بتكريم الله تعالى للإنسان.

(١) سورة الملك.

بينما في شريعة الله تجد الوسطية والاعتدال، فلا تنفصل منظومة القيم عن منظومة الأخلاق، فلا يحق لأحد من الناس تجاوز القيم الأخلاقية والمجتمعية بدعوى الحرية الشخصية، فهذه الأخلاق مربوطة بتكريم الله تعالى للإنسان، والإنسان يُمنع من بعض الأفعال التي تشينه وتنزل به إلى دركات الأنعام، ولو كان في ذلك تضييق على حرية اختياره.

ثالثاً: بين الفرد والأسرة والمجتمع:

قد بينا في المقال السابق أن النظرة الغربية التي تتبناها الأمم المتحدة في حقوق الإنسان هي النزعة الفردية، فاختيارات الفرد وحريته مقدمة على المجتمعات حتى لا يكاد يكون له قيمة، بينما في النظرة الماركسية يغلبون حقوق المجتمعات حتى يكادون يهضمون كل حقوق الأفراد.

بينما إذا نظرت إلى شريعة الله تعالى تجد التوازن بين الفرد والمجتمع، فللفرد حقوق خاصة لا يحق لأحد من الناس التعدي عليها ولا التضييق عليه فيها، وللمجتمعات حقوق فلا يحق للفرد ارتكاب الأفعال التي تسيء للمجتمع أو تستفزه أو تضعف روابطه.

كذلك نرى في الإسلام اهتماماً كبيراً بالأسرة وحقوقها، بل لعلِّي أقول إنها الحلقة الأهم بين مكونات المجتمع في النظرة الإسلامية، لأنها فترة غرس القيم والمفاهيم وتشكيل التصورات والمحافظة على الهوية، لذلك تجد أن كثيراً من الحريات الفردية الغربية تصطدم مع حقوق الأسرة في الإسلام خاصة حقوق المرأة والطفل.

مكانة القسطنطينية وفتحها العظيم

د. أنور بن قاسم الخضري
باحث وكاتب يمني

تمهيد:

بمناسبة الذكرى السَّادِسةِ والسِّتِّين بعد الخمسمَائةِ لفتح مدينة القسطنطينية التي باتت بعد فتحها عاصمة الخلافة الإسلامية العثمانية لأكثرِ مِن أربعمائة عام، ينبغي التذكير أنَّ حواضر الإسلام الكُبرَى التي انتزعها الإسلام مِن يدِ دوَلٍ وديانات أُخرَى ستظَلُّ محلَّ مَطمَعٍ مَن أولئك الذين لا يزالون يحملون أحقادَ التَّاريخ. وإذا لم يحافظ المسلمون على انتصاراتهم بالأخذ بالسُّننِ والأسبابِ الشَّرعيَّةِ والكونيَّة التي أمرهم الله بها، وإلَّا فإنَّ هذه الانتصارات لن تستمِرَّ لهم إذا لم يكونوا أهلاً لها وللدفاع عنها. فسنن الله لا تحابي أحداً مِن عباده مهما بلغ إيمانه.

مِن هذا المنطَلقِ نستعرِضُ قضية فتح القسطنطينية بين القديم والواقع والمستقبل في هذه الورقة الموجزة؛ آملين أن تتنبَّه الأجيالُ المسلمة لمؤامرات الأعداء ومخطَّطاتهم الرَّاميَّة إلى زيادة تفريقهم وإضعافهم لاحتلال بلدانهم كما جرى سابقاً. وأن تعمل جاهدة في سبيل التصدي لهذه المؤامرات والمخططات بشكل مدروس وجهد عمليٍّ منظم وشامل وعميق.

الفتح.. البشرى والأجر:

احتلَّت مدينةُ القسطنطينية مكانةً عظيمةً في وعي الرَّسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السياسيِّ والجهاديِّ، لما لها مِن مكانةٍ عُظمى في العالم، ولما تُمثِّله هي ومدينةُ رُوميَّة (رُومَا)

مِن رمزيةٍ للرُّوم النصارى. لذلك فقد بشَّر الرَّسول الكريم بفتحِ هاتين المدينتين، ذاكراً أَجرَ مَن يقصدهما مجاهِداً وفاتحاً لهما. فقد جاء في الحديث عن أمِّ حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها سمِعَت النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((أوَّلُ جيشٍ مِن أُمَّتي يغزُون البحر قد أوجبُوا)). فقلتُ: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: ((أنت فيهم)). ثمَّ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أوَّلُ جيشٍ مِن أمَّتي يغزون مدِينة قيصر مغفورٌ لهم)). فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: ((لا))[1].

وفي رواية عنها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوماً في بَيتِهَا، فاستَيقَظَ وهو يَضحَك. قالت: يا رَسولَ اللَّهِ ما يُضحِكُكَ؟ قال: ((عَجِبتُ مِن قَومٍ مِن أُمَّتي يَركَبُونَ البَحرَ، كالمُلُوكِ على الأسِرَّةِ)). فقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، ادعُ اللَّهَ أن يَجعَلَنِي مِنهم. فقال: ((أنتِ مِنهم)). ثُمَّ نَامَ فاستَيقَظَ وهو يَضحَكُ. فقال مِثلَ ذلكَ، قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، ادعُ اللَّهَ أن يَجعَلَنِي مِنهم. فقال: ((أنتِ مِن الأوَّلِين))[2].

ولـمَّا كان أمرُ فتحِ المدينتين مُستقِراً في نفوس الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أيُّ المدينتين تُفتَحُ قبلُ.

فعن أبي قُبيلٍ أنَّهم تذاكروا فتحَ قُسطنطينية ورُوميَّة، فدعَا عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بصندُوقٍ ففتَحه، فقال: كنَّا عند رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نكتُبُ، فقال رجُلٌ: أيُّ المدينتين تفتحُ قبلُ يا رسول الله؟ قال: ((مدِينةُ هِرقلٍ)). وفي رواية: بينما نحن حولَ رسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَكتبُ، إذ سُئِلَ رسولُ اللَّهِ: أيُّ المدينَتينِ تُفتَحُ أوَّلاً: قُسطنطينيَّةُ أو روميَّةُ؟ فقالَ رسولُ اللَّهِ: ((مَدينةُ هِرقلَ تُفتَحُ أوَّلاً))، يَعني قُسطَنطينيَّةَ[3].

وإذا لم يحافظ المسلمون على انتصاراتهم بالأخذ بالسُّنن والأسبابِ الشَّرعيَّةِ والكونيَّة التي أمرهم الله بها، وإلَّا فإنَّ هذه الانتصارات لن تستمرَّ لهم إذا لم يكونوا أهلاً لها وللدفاع عنها. فسنن الله لا تحابي أحداً مِن عباده مهما بلغ إيمانه..

والبشرى بفَتحِها سبقَ أن جاءت على لسان هِرقل ذاته، في حديثه مع أبي سفيان المشهور. فقد جاء فيه قوله: "إن يَكُ ما تَقُولُ فيه حَقّاً، فإنَّه نَبيٌّ، وقد كُنتُ أعلَمُ أنَّه خَارِجٌ، ولم أكُ أظُنُّهُ مِنكم، ولو أنِّي

(١) البخاري: (٢٩٢٤).
(٢) البخاري: (٢٨٩٤) و(٢٧٩٩)؛ ومسلم: (١٩١٢).

(٣) مسند أحمد: ج١٠/ ١٣١؛ وقال أحمد شاكر، في تحقيقه له: إسناده صحيح. وهو في السلسلة الصحيحة للألباني: (٤). وأخرجه الحاكم في مستدركه: (٨٣٠١)، و(٨٥٥٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

أعلَمُ أنِّي أخلُصُ إلَيه لأَحبَبتُ لِقاءَهُ، ولو كُنتُ عِندَهُ لغَسَلتُ عن قَدَمَيه، ولَيَبلُغَنَّ مُلكُهُ ما تَحتَ قَدَمَيَّ"[1]. وهو وإن كان يشِيرُ للشَّام، حيث ورَدَه كِتابُ الرسول ﷺ ورسوله إليه، إلَّا أنَّ عبارة ما "تحت قدميَّ" أوسع دلالة في شأن ملكٍ بحجم هِرقل؛ وهو مَن هو في معرفته بعلم التوراة والإنجيل والتنجيم.

ففي الصحيح، أنَّ ابنُ النَّاظُورِ صَاحِبُ إيلِيَاءَ كان أسقُفّاً على نَصَارَى الشَّأم، وكان يُحَدِّثُ أنَّ هِرَقلَ حِينَ قدِم إيلِيَاءَ [أي بيت المقدس]، أصبح يوماً خَبِيث النَّفسِ، فقال بعضُ بَطَارِقَتِه: قَد استَنكَرنا هيئَتك، قَال ابنُ النَّاظُورِ: وكانَ هِرَقلُ حزَّاءً يَنظُرُ في النُّجُومِ. فقال لهم حِينَ سألُوه: إنِّي رأَيتُ اللَّيلَةَ حِينَ نَظَرتُ في النُّجُومِ مَلِكَ الخِتَان قد ظَهَرَ، فمَن يَختَتِنُ من هذه الأُمَّة؟ قالوا: ليسَ يَختَتِنُ إلَّا اليَهُودُ، فلا يُهِمَّنَّك شأنُهم، واكتُب إلى مَدَايِنِ مُلكِك، فيَقتُلُوا مَن فيهم مِن اليَهُودِ. فبينَما هم على أمرِهم أُتِيَ هِرَقلُ برجُلٍ أرسَلَ به مَلِكُ غَسَّانَ يُخبِرُ عن خَبَرِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فلمَّا استَخبَرَهُ هِرَقلُ قَال: اذهَبُوا فانظُرُوا أمُختَتِنٌ هو أم لا؟ فنَظَرُوا إلَيه، فحَدَّثُوه أنَّه مُختَتِنٌ، وسَأَلَه عَن العَربِ، فقال: هم يَختَتِنُونَ. فقال هِرَقلُ: هذا مُلكُ هذِه الأُمَّةِ قد ظَهَرَ. ثُمَّ كَتَبَ هِرَقلُ إلى صَاحِبٍ له برُومِيَّةَ، وكانَ نَظِيرَهُ في العِلمِ. وسَارَ هِرَقلُ إلى حِمصَ، فلَم يَرِم حِمصَ حتَّى أتَاهُ كِتَابٌ مِن صَاحِبِهِ يُوافِقُ رَأيَ هِرَقلَ على خُرُوجِ النبيِّ، وأنَّهُ نَبِيٌّ. فأَذِنَ هِرَقلُ لعُظَمَاءِ الرُّومِ في دَسكَرَةٍ له بِحِمصَ، ثُمَّ أمَرَ بأَبوَابِهَا فغُلِّقَت، ثمَّ اطَّلَعَ فقال: يا مَعشَرَ الرُّومِ هل لكم في الفلاحِ والرُّشدِ، وأَن يَثبُتَ مُلكُكم [وهنا الشَّاهد]، فَتُبَايِعُوا هذا النَّبيَّ؟ فحَاصُوا حَيصَةَ حُمُرِ الوحشِ إلى الأبوَابِ، فوجَدُوهَا قد غُلِّقَت، فلمَّا رَأَى هِرَقلُ نَفرَتَهم، وأَيِسَ مِن الإيمَانِ، قال: رُدُّوهُم عليَّ، وقال: إنِّي قُلتُ مَقالتي آنِفاً

(١) البخاري: (٤٥٥٣)؛ ومسلم: (١٧٧٣).

أختَبِرُ بها شِدَّتَكُم على دِينِكم، فقد رَأَيتُ، فسَجَدُوا له ورَضُوا عنه. فكانَ ذلكَ آخِرَ شَأنِ هِرَقْل[1]. فقوله: "أن يثبُتَ مُلكُكم" فيه إشارة إلى أنَّ ملكَهم زَائِلٌ بوجود هذا النَّبيِّ وأُمَّتِه.

وقد جاء في الحديث: ((إذَا هَلَكَ كِسرَى فلا كِسرَى بَعدَهُ، وإذَا هَلَكَ قَيصَرُ فلا قَيصَرَ بَعدَهُ، والذي نَفسِي بيَدِهِ لَتُنفَقَنَّ كُنُوزُهُما في سَبيلِ اللَّهِ))[2]. وقيصر لقبٌ لكُلِّ مَن مَلَكَ الرُّوم. وكما زالَ مُلكُ كسرى بفتح المدائِن، عاصمة فارس، في عهد الخليفة الرَّاشد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد زال مُلكُ هرقل (قيصر الرُّومِ الشَّرقية) في عهد السلطان محمد الثاني بن مراد العثماني، بسقوط القُسطنطينيَّة، عاصمة الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، في جمادى الأولى عام ٨٥٧هـ/ الموافق ٢٩ مايو عام ١٤٥٣م.

وقد شكَّل فتحُ القسطنطينيَّة خاتمةَ مُحاولاتِ سابقة لضمِّ هذه المدينة لحظيرة الخلافة الإسلامية، بدَأَت مُنذُ خلافة مُعاوية بن أبي سُفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أوائل العهد الأُمويّ، واستمرَّت خلال العهد العبَّاسي، إلى أن تكلَّلت بالنجاح في العهد العُثماني.

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ فتح القسطنطينية مثَّل حدثاً تاريخيّاً مُهِماً في مسيرة الفتوحات الإسلامية وميزان القوى في العالم في ذلك الحين، لذا فقد ظلَّ الإسلام بعد هذا الفتح قرابة أربعة قرُونٍ عزيز الجانب مُهابَ الحِمى. وأصبحت القسطنطينية عاصمة الخلافة الإسلامية التي امتدَّت شرقاً وغرباً.

مؤامرة النَّصارى وسقوطُ الخلافة:

بسقوط القُدسِ والشَّامِ بيد المسلمين حمَلَ النَّصارى حِقداً دفيناً على المسلمين، وسعَوا عبر حملات عِدَّةٍ لاسترداد سلطانهم على فلسطين والشَّام عموماً. فقد قاد نصارى أوروبا حملات عسكرية عِدَّة، بدَأَت أواخرَ القرن الحادي عشر الميلادي، واستمرت حتى الثُّلُثِ الأخيرِ مِن القرن الثالث عشر الميلادي (١٠٩٦-١٢٩١م)؛ وكانت هذه الحملات العسكرية ذات بُعدٍ دينيٍّ طاغٍ، لذا عُرفت بـ(الحروب الصَّليبية). فقد كانت تُشنُّ تحت شعار الصَّليبِ، ومِن أجل الدِّفاع عنه واستعادة الأراضي المقدَّسة بزعمهم.

وقد أسفَرَت الحملةُ الأولى، نتيجة تفرُّقِ المسلمين وضعفهم، عن احتلال القُدس عام ١٠٩٩م، وقيامِ مملكة القُدس اللاتينية؛ بالإضافة إلى قيام عِدَّة إمارات صليبيَّة أُخرى، كالرَّها وأنطاكية وطرابلس. وظلَّت القُدسُ بأيديهم حتى حرَّرها المسلمون بقيادة السُّلطان صلاح

(١) البخاري: (٧).
(٢) البخاري: (٣١٢٠)؛ مسلم: (٢٩١٨).

الدين الأيوبي الذي توحدت تحت سلطانه بلاد مصر والشام عام ١١٨٧م. ومع ذلك استمرت الحملات الصَّليبية تتتابع حتى بلغت تِسعَ حملاتٍ عسكريَّة. وظلَّت أرضُ الشام ومصر والأناضول ميدان صراع دائِمٍ بين معسكر المسلمين ومعسكر الصليبيين.

فتح القسطنطينية مثَّل حدثاً تاريخيّاً مُهِماً في مسيرة الفتوحات الإسلامية وميزان القوى في العالم في ذلك الحين، لذا فقد ظلَّ الإسلام بعد هذا الفتح قرابة أربعة قرُونٍ عزيز الجانب مُهابَ الحِمى. وأصبحت القسطنطينية عاصمة الخلافة الإسلامية التي امتدَّت شرقاً وغرباً..

ومع ضَعفِ الدَّولة العُثمانية في آخِرِ عهدِها، عادَت الأطماعُ الأوروبيَّة الصَّليبية على بلاد المسلمين مُجدَّداً تحت غطاءِ حركة الاستعمار الحديث[١]؛ والذي ظَهرَ بعد قيام الثَّورة الصِّناعية في أوروبا في القرن التَّاسِع عشر. وعَقِبَ هزيمة الدولة العثمانيَّة في الحرب العالمية الأولى، التي دخلتها إلى جانب دول المحور، سعَت الدول الأوربية لتقاسم إرثها الجغرافي بكُلِّ ما يحمله مِن شُعوبٍ وثروات ومقدَّرات.

فقد هاجمت كلٌّ من بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا الأراضي العثمانية، ما ألجأ الدولة العثمانية لإبرام (مُعاهدَة مودروس) مع دول الحلفاء، وخرجت بموجبِها مِن الحرب. فقد أنهَت المعاهدة، الموقَّعةُ في ٣٠ أكتوبر ١٩١٨م، العمليات القتالية في الشرق الأوسط بين الدولة العثمانية والحلفاء. وقد كانت شروط المعاهدة مجحفة جداً بالدولة العثمانية.

بعد مرور شَهرٍ على توقيع المعاهدة، دَخَلت البحرية البريطانية والفرنسية والإيطالية ثمَّ الأمريكية خليج (القرنَ الذهبي)، وأنزلت قواتها في (الأَستَانَة) وحوَّلتها لقاعدة عسكرية لنشاط الحلفاء في المنطقة كُلِّها. كما سيطرَ الحلفاءُ على موانئ البحر الأسود كُلِّها، واقتسموا الأراضي التركية، فاحتل الفرنسيون (مَرسين) و(أَضَنة)، والإيطاليون (أنطاكية) و(كوشا داسي) و(قونية)، واحتلَّ اليونانيون القسم الغربي مِن الأناضول، بالإضافة إلى (تراقيا).

مع عجز الدولة وهزيمتها، أُرغِمَ العثمانيون مِن دول المركز على توقيع (معاهدة سيفر) في ١٠ أغسطس ١٩٢٠م. وتضمَّنت هذه المعاهدة التَّخلِّي عن جميع الأراضي العثمانية التي يقطُنها

(١) الاستعمار الحديث هو تعبير يقابل الاستعمار القديم الذي قامت بها أوروبا في القرن السَّادِس عشر الميلادي لغزو العالم والبحث عن مَصدَرٍ للثروات، وطريق جديدة لخطوط التجارة العالمية. فتمكنت مِن احتلال شعوب كاملة في آسيا وأفريقيا والعالم الجديد الأمريكيتين وأستراليا.

غير الناطقين باللغة التركية، إضافة إلى استيلاء الحلفاءِ على أراضٍ تركيَّة. فخضَعَت فلسطين والعراق للانتداب البريطاني، وسوريا ولبنان للانتداب الفرنسي. كما نصَّت المعاهدة على وضع مضيق (البوسفور) و(الدردنيل) تحت إدارة دولية.

أشعَلَت المعاهدة المجحفة عداء الأتراك. وظهرت في تلك المرحلة الحركة القومية التركية بزعامة مصطفى كمال، الذي عُرِفَ بعدُ بـ(أتاتورك)، والتي قادت عمليات تحرير تركيا ومُقاومَةِ الاحتلال الأجنبي لأراضيها. وتمكَّن مصطفى كمال بما حقَّقَ مِن انتصارات أن يُلغي (معاهدة سيفر)، وأن يدفع الحلفاء لتوقيع معاهدة جديدة عُرِفَت بـ(معاهدة لوزان) في يوليو ١٩٢٣م. وكانت المعاهدة الجديدة بمثابة تسويَةٍ لوضع الأناضول و(تراقيا) الشرقية، القسم الأوروبي مِن تركيا حاليّاً. وقادت إلى اعتراف دوليٍّ بجمهورية تركيا كوريث للإمبراطورية العثمانية. وبموجب المعاهدة تنازل الأتراك عن المطالبة بمصر والسُّودان والعراق وسوريا وقبرص، وجميع أملاك الخلافة العثمانية خارج حدود تركيا الحديثة.

بعد توقيع الاتفاقية جرى تجريد السُّلطان عبد المجيد الثاني مِن أي سلطةٍ تشريعية أو تنفيذية أو قضائية؛ ثمَّ جرى إلغاءُ الخلافة عام ١٩٢٤م، ونُفي عبد المجيد الثاني خارج البلاد. وتحوَّلت تركيا وفق دستور جديد إلى دولة علمانية لها موقف سلبيٌّ مِن الدِّين.

هكذا نجِدُ أنَّ القسطنطينية وأراضي الأناضول الإسلامية، ومِن قبلِها القُدسُ وأراضي الشَّام، وقَعَت مجدَّداً تحت الاحتلال الصَّليبي. وهو ما يعني أنَّ وعدَ الله تعالى وبشرى رسوله ﷺ مرتبطان بالسُّنن الإلهيَّة الرَّبانيَّة في الأنفُسِ والمجتمعات؛ أي أنَّ عودة احتلالِ بلاد الإسلام مجدَّداً بسبب ضعفِ المسلمين وتفرُّقهم وغيابهم عن الشُّهود الحضاري.

فتح القسطنطينية مجدَّداً:

أخبرت أحادِيثٌ نبويَّةٌ عِدَّة عن فتحٍ ثانٍ للقسطنطينية كائِنٍ آخر الزَّمان، وقبيل ظهور الدَّجال. وهذا يتَّفِقُ مع مطامع الدُّول النَّصرانيَّة في استعادة ميراثها التاريخي في المنطقة كُلَّما أمكن ذلك، وسعيهم الدَّؤُوبِ في تحقيق ذلك. فالسعي في إضعاف تركيا، وحصارها، وتمزيق كيانها، وإشغالها بحربٍ أهلية، وإضعاف اقتصادها بات همّاً للدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية، كما هو إلى حدٍّ ما لروسيا وريثة الدَّولةِ البيزنطية في الكنيسة الأرثوذكسية.

وهذا الفتح الآخر للمدينة يرتبط بأحداثٍ وعلاماتٍ سابقة له، وهي:

قيامُ دولة إسلامية بأرض الشام:

ففي الحديث عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبيه، قال: سمعت أبا ثعلَبَةَ الخشني صاحب رسول الله ﷺ يقول وهو بالفُسطَاط في خِلافةِ معاوية رضي الله عنه، وكان معاويةُ أغزى النَّاس القسطنطينية، فقال: "والله لا تَعجَزُ هذه الأُمَّة مِن نِصفَ يومٍ، إذا رأيتَ الشَّام مائِدة رَجُلٍ وَاحِدٍ وأهل بيته فعند ذلك فتحُ القسطنطينية"(١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((فُسطاطُ المسلمين يوم الملحمة الغُوطةَ، إلى جانِب مدينة يُقالُ لها: دمشق))(٢). والملحمة معركة للمسلمين مع الروم تسبق الفاتح القادم للقسطنطينية.

وفي حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه عن النبيَّ ﷺ أنَّه قال: ((اعدُد سِتّاً بين يَدَيِ السَّاعَةِ: ...)) وذكر مِنها: ((ثُمَّ هُدنَةٌ تَكُون بينَكم وبين بَنِي الأصفَرِ، فيَغدِرُونَ فيَأتُونَكُم تَحتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحتَ كُلِّ غَايَةٍ اثنَا عَشَرَ أَلفاً))(٣).

وفي بعض الرِّوايات: ((فُسطَاطُ المسلِمين يومَئِذٍ في أرضٍ يُقالُ لها الغُوطَةُ، فيها مَدِينةٌ يُقالُ لها دِمَشقُ))(٤).

وهناك أحاديث صحيحة أخرى تشير إلى قيام خِلافةٍ إسلاميةٍ آخِرَ الزَّمان بأرض الشَّام؛ وليس المجال محلَّ استقصائها والحديث عنها. غير أنَّ مِن الطبيعي أنَّ أيَّ تقدُّمٍ عسكريٍّ لفَتحِ القسطنطينية (شمالاً) لابُدَّ أن يَسبِقه قيامُ دولةٍ مُتمكِّنة في أرض الشَّام، قادرةٍ على تأمينِ ظَهرِ جيش التَّحرير المتقَدِّم. وهذا يقتضي بالضَّرورة زوال دولة بني إسرائيل مِن خارطة المنطقة، وهو ما يُعبَّر عنه في بعضِ الأحاديث بـ(عُمرانُ بيت المقدس)، فالعمران لا يكون إلَّا بأمرين: بالعدل والإيمان؛ وهذا يتطلب وجود سلطان للإسلام في تلك البقاع المباركة.

---

(١) أحمد: (١٧٧٣٤)، وقال شعيب الأرناؤوط، في تحقيقه وآخرين للمسند: إسناده على شرط مسلم. وصورته موقوفٌ كما قال الحافظ في أطراف المسند: ج٦/ ١١٤.

(٢) رواه أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه. وقد ذهب جمع من العلماء لتصحيح الحديث مِنهم ابن حجر في بذل الماعون: (٦٧)؛ والألباني في سنن أبي داود: (٤٦٤٠)؛ وشعيب الأرناؤوط في تحقيقه لمسند أحمد: (٢١٧٢٥)؛ والوادعي في مسنده: (١٠٥٥).

(٣) البخاري: (٣١٧٦).

(٤) وقد صحح الرواية بهذه الزيادة، الألباني في فضائل الشام ودمشق: (٣٠)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد: (٢٣٩٨٥).

وقوع الملاحم أو الملحمة:

فقد جاء في الحديث عن مالك بن يخامر، عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((عُمرانُ بيت المقدس خرابُ يثرب، وخرابُ يثرب خروجُ الملحَمَة، وخروجُ الملحَمَة فتحُ القسطنطينية، وفتحُ القسطنطينية خروجُ الدَّجَّال)). ثمَّ ضرَبَ بيده على فخذ الذي حدَّثه أو منكبه، ثم قال: ((إنَّ هذا لحقٌّ كما أنَّك هاهنا))[1].

والحديث رغم أنَّه ضعيف، إلَّا أنَّه له شواهد مِن أحاديث أُخرٍ ترسُمُ بمجموعها هذا السياق العام للأحداث. مِن ذلك، حديث أُسَير بن جابر أنَّه قال: "هَاجَت رِيحٌ حَمرَاءُ بالكُوفَةِ، فجَاءَ رَجُلٌ ليس له هجّيرَى إلَّا: يا عبد اللهِ بن مَسعُود جَاءَت السَّاعَةُ. قال: فقَعَدَ وكان مُتَّكِئاً، فقال: إنَّ السَّاعَةَ لا تَقُومُ حتَّى لا يُقسَمَ مِيرَاثٌ، ولا يُفرَحَ بغَنِيمَةٍ. ثُمَّ قال: بيَدِهِ هكذا، ونحَّاها نَحوَ الشَّأمِ، فَقال: عَدُوٌّ يَجمَعُونَ لأَهلِ الإسلَامِ، ويَجمَعُ لهم أَهلُ الإسلَامِ. قُلتُ: الرُّومَ تَعنِي؟ قال: نَعَم، وتَكُون عِند ذَاكُم القِتَالِ رَدَّةٌ شَدِيدَةٌ؛ فيَشتَرِطُ المسلِمُونَ شُرطَةً للموتِ لا تَرجِعُ إلَّا غَالِبَةً، فيَقتَتِلُون حتَّى يَحجُزَ بينَهم اللَّيلُ، فيَفِيءُ هؤُلاءِ وهؤُلاءِ كُلٌّ غيرُ غالِبٍ، وتَفنَى الشُّرطَةُ. ثُمَّ يَشتَرِطُ المسلِمُونَ شُرطَةً للموتِ لا تَرجِعُ إلَّا غَالِبَةً، فيَقتَتِلُونَ حتَّى يَحجُزَ بينَهم اللَّيلُ، فيَفِيءُ هؤُلاءِ وهؤُلاءِ كُلٌّ غيرُ غَالِبٍ، وتَفنَى الشُّرطَةُ. ثُمَّ يَشتَرِطُ المسلِمُونَ شُرطَةً للموتِ لا تَرجِعُ إلَّا غَالِبَةً، فيَقتَتِلُونَ حتَّى

(١) أحمد: (٢٢١٢١)، ، وقال شعيب الأرناؤوط، في تحقيقه وآخرين للمسند: إسناده ضعيفٌ لضعف عبد الرحمن بن ثوبان. وأورد حديثه هذا الإمام الذهبي في الميزان في جملة مناكيره. وأخرجه أبو داود: ٤٢٩٤، وحسنه الألباني؛ والخطيب في تاريخه: ج١٠/٢٢٣، مِن طريق أبي النضر هاشم بن القاسم، بهذا الإسناد.

يَحجُزَ بينَهم اللَّيلُ، فيَفِيءُ هؤُلاءِ وهؤُلاءِ كُلٌّ غيرُ غَالِبٍ، وتَفنَى الشُّرطَةُ. فإذَا كان يوم الرَّابِعِ، نَهَدَ إليهم بَقِيَّةُ أهلِ الإسلامِ؛ فيَجعَلُ اللَّهُ الدَّبرَةَ عليهم، فيَقتُلُونَ مَقتَلَةً، إمَّا قال: لا يُرَى مِثلُها، وإمَّا قال: لم يُرَ مِثلُهَا. حتَّى إنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بجَنَبَاتِهم فما يُخَلِّفُهم حتَّى يَخِرَّ مَيتاً. فيَتَعَادُّ بَنُو الأبِ، كَانُوا مِئَةً، فلا يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنهم إلَّا الرَّجُلُ الوَاحِدُ، فبأَيِّ غَنِيمَةٍ يُفرَحُ؟ أو أَيِّ مِيرَاثٍ يُقَاسَمُ؟.. الحديث"[1]. ووهذا الحديث له حُكمُ الرَّفعِ، لأنَّه مما لا يُعلمُ إلا بوحيٍّ عن الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهو يؤكِّد أنَّ فتح القسطنطينية مَسبُوقٌ بملحمَةٍ (حربٍ) عُظمَى يستشهد فيها كثيرٌ مِن المسلمين ويُقتَلُ فيها الكثيرُ مِن الرُّوم، حتى لا يستطيعُ الطَّير تجاوزَ الأرضَ التي يكون فيها نتَنُ جثثهم. وهذه الملحمة تجري على أرضِ الشَّام حيث سيكونُ عُقرُ دارِ الإسلام؛ فهي ملحَمَةٌ تستهدِفُ القضاء على دولة المسلمين وإنهاء وجودهم؛ بدليل هذا الجمع غير المسبوق الذي يعدُّ له الرُّوم.

احتلال القسطنطينية:

إنَّ وقوعَ الملحمةِ الكُبرى تمهيدٌ لتحريرِ القُسطنطينيَّة مِن احتلالٍ يلحَقُ بها، وإلَّا لم يكُن لفَتحِها معنى إذا كانت لا تزالُ باقيَّة في أيدي المسلمين. وهناك إشارة عدَّة في عِدَّةِ أحاديث تُؤكِّد ذلك. بل إنَّ جيوش الرُّوم ستنزل بأرضٍ بين الأناضول وسوريا اليوم، فيما تُسمَّى بالأعماق أو بدابق. فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنه أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((لا تقومُ السَّاعةُ حتى يَنزِلَ الرُّومُ بالأعماق، أو بدَابِقٍ، فيخرُجُ إليهم جيشٌ مِن المدينة، مِن خيارِ أهل الأرض يومئذٍ، فإذا تصَافُّوا قالت الرُّوم: خلُّوا بيننا وبين الذين سَبَوا مِنَّا نقاتِلهم. فيقولُ المسلمون: لا والله لا نخلِّي بينكم وبين إخواننا. فيُقاتِلونهم. فيَنهَزِمُ ثُلثٌ لا يتُوبُ الله عليهم أبداً، ويُقتَلُ ثُلثُهم هم أفضلُ الشُّهداءِ عند الله، ويفتَتِحُ الثُّلثُ، لا يُفتنُون أبداً، فيفتَتِحُون قسطنطينية،.. الحديث))[2].

ومِن غير الواضح مَدَى زَمنِ الاحتلال الذي ستخضَعُ له القسطنطينية قَبلَ الفتح الثاني؛ وما هو حال المسلمين فيها بعد احتلالها مِن الأعداء. والبعضُ يَذهبُ إلى أنَّ قوى المنافقين بتركيا يُمكِنُ أن تكُون هي المعنيَّة بفكِّ ارتباط القسطنطينية بدينِها وهويَّتها، ما يجعلها مدينة مختطفة مِن الجسد الإسلامي. وعليه فإنَّ الفتحَ المشَارُ إليه بالتَّهليل والتكبير ليس إلَّا مُواجهةً مع المنافقين الذين تخُورُ قواهم عند قوة الحقِّ وغلبته.

ختاماً..

فإنَّ هذا العرض الموجز يقصد استحثاث همَّة المسلمين ووعيهم؛ كي لا تسقط مُدُنهم وتذهب دولهم، وهم غافلون عن كيد أعدائهم ومكر خصومهم. فالأقدار تدفع بالأسباب والأسباب من الأقدار، وما لم يأخذ المسلمون حذرهم فوَّتوا الأسباب.

---

(١) مسلم: (٢٨٩٩).

(٢) مسلم: ٢٨٩٧. والأعماق ودابق موضِعان بين حَلَبٍ وأنطاكية.

بيّنات

سياسات النشر في المجلة:

تُقبل المقالات في المجلة بعد العرض على هيئة التحرير إذا استوفت الشروط التالية:

(١) ألا يكون البحث أو المقال قد سبق نشره، أو قُدّم لأية جهة أخرى من أجل النشر.

(٢) أن تكون البحوث والمقالات متسمة بالعمق والأصالة وحسن الأسلوب ووضوحه، والسلامة من الأخطاء اللغوية والنحوية، وأن يضيف نشرها جديداً إلى المعرفة.

(٣) أن تكون البحوث والمقالات موثقة من الناحية العلمية بالمراجع والمصادر والوثائق، وتوضع الهوامش في أسفل كل صفحة.

(٤) لا تدفع المجلة مكافآت ولا تتقاضى أية مبالغ مقابل البحوث أو المقالات المنشورة أو أي أعمال فكرية ما لم تكن بتكليف.

(٥) أن لا يتجاوز البحث أو المقال سبع صفحات (١٠٠٠) كلمة، ولا يقل عن ثلاث صفحات (٤٥٠) كلمة (بمقاس ورقة A4).

bayyinatre@gmail.com